ميتي نورجارد

تقديم ستيفن كوفي



يذهب إلى العمل



خلاصة حكم حكايات
هانز كريستيان أندرسون
الكلاسيكية
وتطبيقاتها في مكان العمل

نقله إلى العربية

د. شكري مجاهد





البط الدميم يذهب إلى العمل

خلاصة حِكَم حكايات هانز كريستيان أندرسون الكلاسيكية وتطبيقاتها في مكان العمل

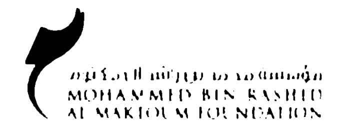
ميتي نورجارد

تقديم

ستيفن كوفي

نقله إلى العربية

د. شكري مجاهد





Original Title:

The Ugly Duckling Goes to Work

Wisdom for the Workplace from the Classic Tales of Hans Christian Andersen

Mette Norgaard

ISBN 0-8144-0871-0

Published by: Amacom, a division of American Management Association, 1601 Broadway, New York, NY 10019 (U.S.A.)

ISBN 3 - 367 - 54 - 9960 - 978

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937581 / 2937574 فاكس: 2937588 ص.ب: 67622 الرياض: 11517

الطبعة العربية الأولى 1429هـ_2008م

ح مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جارد، ميتي نور

البط الدميم يذهب إلى العمل. / ميتي نور جارد، شكري مجاهد. - الرياض، 1429هـ

248ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 3 - 367 - 54 - 9960 - 978

١ ـ القصص القصيرة أ. مجاهد، شكري (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 808.83 1429 / 6768

صدرت هذه الطبعة باتفاقية نشر خاصة بين الناشر العبيكان ومؤسسة

مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المؤسسة؟

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص.ب: 62807 الرياض 11595


بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

كنت في بداية مرحلة المراهقة أذهب إلى المدرسة بدراجتي، وكانت حركتي بها تختلف اختلافًا كبيرًا حسب اتجاه الرياح؛ إذا كانت تأتي من خلفي أو من أمامي. وفي هذا الكتاب تلقيت دعماً ودفعًا جعلاني أتذكر أثر الرياح عندما تأتي من خلفي فتيسِّر حركتي.

ساعدني أصدقائي في العمل وخارجه بالتشجيع وبالرأي والنصيحة؛ وأنا أعلن امتناني للجميع وإن لم أذكرهم بالاسم. ومع ذلك فلابد من ذكر بعض الأسماء: بام وولش وكارولين ستيجمار فقد نصحوني بأن أكتب لكل من كان في مكان العمل: وجون هوبكنز وجوناثان ينغ لعشقهما للحكايات الخرافية وتوجيهي لآراء يونغ النفسية: ودورثي نورجارد وكريغ بيس لتعليقاتهما المخلصة على مخطوطة الكتاب.

كما أشكر مايكل مورخ القنصل العام وإيريني كراروب ملحق الشؤون الثقافية وكلاهما في القنصلية الدنماركية في نيويورك، فقد توليا إدراج الكتاب في الاحتفال الرسمي بمرور 200 سنة على ميلاد هانز كريستيان أندرسون.

وكأن العملية الإبداعية المتعلقة بتأليف الكتاب لم تنطو على قدر كافٍ من التحدي: فجاءت مرحلة شاقة وهي إخراج الكتاب إلى السوق، ويعود الفضل في ذلك إلى كريغ لينك وستيفن إم. آر. كوفي،

فقد كانا نعم المستشارين والوكلاء بما قدما من رؤية وتوجيه نقدي. وكم سعدت بحماس فريق النشر في مؤسسة الإدارة الأمريكية، وأتقدم بشكر خاص إلى محرريّ الكتاب جاكي فليم ونايلز بوسيم، فقد أسهمت نصائحهما في إخراج الكتاب في صورة أفضل.

وهناك ثلاثة أشخاص يستحقون إشارة خاصة. فقد أنهكت جوان روبنز معي في مراجعة كل كلمة من كلمات الترجمة، فكانت كلها حماس ودقة وإصرار، أما فليمنغ فلايفهولم فقد ساعدني في أن أعبّر عن صوتي الخاص في الكتابة؛ إذ قام بمراجعة كل مسوَّدة، وكنت دائمًا أثق في توجيهه الذي يتميز بالدفء والعمق والحِرَفية. وأما زوجي ألفريدو سانشيز جوميز فقد كان معي في كل خطوة من خطوات رحلة تأليف الكتاب، وكان أشرس من انتقدني وأقوى من ساندني. كان دائم التحدي لأفكاري كي يساعدني في التعبير عنها بصورة أفضل، كم أشعر بأني محظوظة أن أشاركه الولع بالتعلم والإصرار على التعبير عن نفسينا في كل ما نعمل.



قالوا عن الكتاب

«يثير هذا الكتاب خيالنا وخبرتنا بمهارة. فقد أحببت قراءة هذه الحكايات مرات عديدة لأنها توقظ فضول الطفولة عندي. وإن ما تقدمه ميتي من إرشاد بارع يجعل من الفضول أداة لإعادة النظر في كثير من الديناميات الشخصية والمؤسسية. هذا الكتاب استفز عقلي وأثار مشاعري وجعلني أرى أشياء كثيرة في ضوءٍ جديد».

- مرغريت جيه ويتلي مؤلفة كتاب «القيادة والعلم الجديد»

«هذا كتاب رائع! أقامت ميتي نورجارد صلة مدهشة ومستفزة للعقل بين حكمة الحكايات الكلاسيكية التي ألفها هانز كريستيان أندرسون وفهمها العميق للمبادئ الخالدة التي لابد منها لكل حياة عمل مثمرة. أحسنتِ يا ميتي!»

- دوغلاس آر. كونانت رئيس شركة كامبل سوب ومديرها التنفيذي

«يقدم هذا الكتاب عونًا حقيقيًا لكل من أراد أن يجد الإشباع في مكان العمل. فإذا كان جوزيف كامبل قد ساعدنا على فهم الرحلة الداخلية فإن ميتي نورجارد تعيننا على فهم مسار حياتنا العملية. من يقرأ الكتاب ستبهره طريقتها في تطبيق حكمة هذه القصص الساحرة على التحديات التي تواجهنا في مجال عملنا».

- د. جوناثان ينغ عالم النفس وعضو مؤسس في لجنة أمناء تراث جوزيف كامبل

«هذا كتاب عظيم وغير عادي! ربطت فيه ميتي نورجارد دروس الطفولة الثمينة بتطبيقات عالم الكبار على المستويين العملي والشخصي؛ فتعطينا هذه القصص منظورًا جديدًا تمامًا للتطور المستمر لتلك العلاقات والتفاعلات. نعم العمل!»

- هورست هـ. شولتز مدير إدارة التشغيل؛ والرئيس المؤسس لشركة فنادق ريتز كارلتون، والمدير التنفيذي والرئيس الحالي لمجموعة فنادق وست بيسيز

«كان هانز كريستيان أندرسون شخصية مهمة جداً في عصره، وأنا أراه دنمركياً حتى النخاع. فنحن الدنماركيين نتذكر حكاياته من قراءة آبائنا وأمهاتنا، وكلنا نرى أنفسنا في كثير من شخصياتها الشهيرة. هذا مزيج مدهش بين ذكريات الطفولة وخبرات الحياة اليومية، ويمكن الاستفادة منه في كثير من المؤسسات».

- يورجين ليندجارد رئيس الخطوط الجوية الاسكندنافية

«لم أكن أتخيل قط أن حكايات هانز كريستيان أندرسون الخرافية يمكن أن تلهمني باعتباري قائداً، أما الآن فقد عرفت!»

- لارس كوليند رئيس مؤسسة غروندفوس ومنشئ «مؤسسة اسباجيتي» في أوتيكون، وهي واحدة من أهم الشركات القائمة على المعرفة تماماً

«كانت الكتب المحفزة وما زالت تمثل جزءًا مهماً في رحلتي مع القيادة. وقد اكتشفت بنفسي أهمية القيادة الأمينة وأهمية عشق ما نفعل وأثره القوي. ويعد كتاب ميتي أداة فاعلة ودفعة قوية تساعد في

تطوري لأكون قائدًا أمينًا وعاشقاً لما أفعل. فقد كشفت ميتي عن موهبة عظيمة في الربط بين حكايات الطفولة الدنماركية والمفاهيم التي يمكن أن أستخدمها في حياتي العملية».

- بيرنل لوبيز رئيس شركة إيكيا - أمريكا الشمالية

«هذا الكتاب يستخدم الحكايات بطريقة محفزة وفاعلة وموحية ليقدم لنا مبادئ خالدة. ولقد أبدعت ميتي في ترجمة الحكايات إلى خلاصات عملية مفيدة تستفزنا لنفكر في مدى تأثير تصرفاتنا الشخصية في حياتنا وحياة الآخرين».

- ريتا بيلي المدير التنفيذي لشركة سي. إي. أو. المحدودة والمدير السابق لجامعة ساوث ويست الشعبية، ورئيس الجمعية الأمريكية للتدريب والتنمية (ASTD لعام 2005)



المحتوى

تصدير

يرتبط هذا الكتاب ارتباطاً وثيقاً بالمرحلة الانتقالية التي نمر بها حالياً (المجتمعات الغربية) من نموذج التحكم المرتبط بالعصر الصناعي إلى نموذج التحرر المرتبط بعصر عمال المعرفة/ المعلومات الذي أوغلنا فيه بالفعل. ففي رأيي فإن أكبر ما نواجهه من مشكلات في أغلب المؤسسات ومواقع العمل هو أننا ما زلنا نستخدم النموذج الصناعي بينما نحاول أن ننجز الأعمال ونتنافس في عصر عمال المعرفة/المعلومات. إن وجودنا نفسه يعتمد على امتلاكنا للذهنية ولمجموعة المهارات والأدوات اللازمة لإطلاق الإمكانات البشرية ومساعدة الآخرين على ذلك وإيجاد الصوت المتفرد لكلٍ منا. فلن يصنع المستقبل إلا من ينجح في عبور هذه المرحلة الانتقالية. هذه النتيجة حتمية لأنها عملية، ومن المفارقات أنها مثالية أيضاً. هذا التجاور الغريب بين العملي والمثالي في قصص هانز كريستيان أندرسون هو صورة لما نواجهه اليوم من تحدٍ.

وأود أن أقول كلمة عن ميتي نورجارد، قبل أن أفصّل في هذا. فإن برامج تنمية الموظفين التنفيذيين بمركز «كوفي» لإعداد القادة، الذي تحول فيما بعد إلى «فرانكلي كوفي»، قد سعدت بحضور ميتي نورجارد المتوقد وقيادتها وتعاليمها: فهي واحدة من أكثر من عرفت من المعلمين اهتماماً بتلاميذها وأعمقهم بصيرة وتأثيراً. فعندما تكون معها شخصياً، أو مع أفكارها العميقة، والأسئلة النافذة التي تطرحها

في هذا الكتاب، فإنك تشعر أنها ببساطة لم تتلق هذه الأفكار الرائعة؛ بل اكتسبتها بجهد كبير.

مثل العندليب في إحدى حكايات كتابها، تمتلك ميتي شجاعة هادئة تمكّنها من أن تشدو بأغنيتها الفريدة، وأن تشجع الآخرين (أي تنفث الشجاعة فيهم) ليبحثوا عن أصواتهم الخاصة، ومن ثم الشدو بأغنياتهم الخاصة. فبينما نتابعها تناقش كل حكاية وتشركنا في قناعاتها، نجد أنفسنا مسافرين في رحلة ميتي الشخصية ونتعلم من تطورها واكتشافاتها. عندما قرأت هذا الكتاب وأمعنت الفكر فيه، شعرت كأنني أدرس رحلتي الخاصة واكتشافاتي وتطوري: فهنا تكمن قوة المجاز الشعري والتعليم المبني على الحكايات الرمزية.

لذلك أدعوك - أيها القارئ - أن تمعن التفكير في قصص الكتاب، ومن ثم مناقشتها مع من حولك، ولاسيما فريق عملك. فالأفكار العميقة العملية وما يصاحبها من دفع معنوي مثالي ستسهِّل حدوث عملية تحول ضروري لك ولمن حولك. وهاك بعض الأمثلة على ما أقول.

تمثل «قصة ملابس الإمبراطور الجديدة» «قول القائل: عندما وجد الإنسان المرآة، بدأ ضياع روحه» والمقصود أنه صار يهتم بصورته أكثر من جوهره. وأعتقد أن ما يربو عن 90 بالمئة من الإخفاقات على المستويين القيادي والفردي في أساسها إخفاقات ترتبط بعيوب في الشخصية؛ وأن حكايات هذا الكتاب تدور في جوهرها حول الشخصية. يظهر ذلك جلياً في المؤسسات القائمة حالياً، التجارية

منها خاصة، فهي تحمل أو تتحمل أوزار قلة من منسوبيها. ولو أني أعتقد أن تلك القلة هم مجرد قمة جبل الجليد العائم وأن الكتلة الكبرى مازالت تحت الماء. هذه العيوب الثقافية هي في الأساس ثمرة لنموذج العصر الصناعي، الذي غذى البيروقراطيات والتنظيمات الهرمية، والكيانات التنظيمية المنفصلة وسياسات المداهنة والأجندات الخفية والإنكار ثم الإنكار.

أما «البط الدميم» فتعلم بعد جهد كبير أن يجد صوته في تناغمه مع أصوات البجع الناشئ، وصار متحرراً من سرطانات المقارنة المتفشية ومن الشكوى والانتقاد والتحدي. تحرر البط من فهم الذات المبني على المقارنة بالغير الذي يغذي التبعية لدى الجميع، وهي ـ أي التبعية ـ صفة أصيلة في نموذج السيطرة.

أما «خنفس الروث» المهووس بمظهره ومهارته، فهو ببساطة لم يكن يعلم العواقب الوخيمة لتضخم صورة الذات. فالغرور، مؤسسياً وشخصياً، أسوأ موجّه للأداء المتميز. وتقدم حكاية «القزم عند البقال» شخصية المثالي العملي، وهو نموذج للتوازن الذي يدعو له كل من جيم كولينز وبيتر دراكر. ويعلمنا الرجلان أن مواجهة الواقع، بحقائقه القاسية البليدة العنيدة، هي أول واجبات الإدارة ثم يأتي التفاؤل وانتهاز الفرص والمثالية.

وحكاية «شجرة التنوب» تجسد السخط والإحباط والعقم الناتج عن انقطاع الصلة بين الإنسان وحياته الحاضرة. فالانفصام عن الحاضر لا يثمر أبداً، لأنه يخالف قانون الحصاد، الذي يفرض على الإنسان إعداد

الأرض قبل الزراعة ثم ريها وزرعها ونزع الحشائش الغريبة الضارة، والصبر على رعايتها ثم انتظار الطبيعة وهي تؤدي عملها في جعل الممكن واقعاً. وللقانون نفسه تخضع خبرة التعليم، فإذا استطاع طالب أن يكدس الدروس قبيل الامتحان، فإن النمو الحقيقي لا يمكن تكديسه.

أما «العندليب» فهي قصتي الأثيرة بين كل هذه الحكايات، لأنها تجسد التكامل بين العملي والمثالي: وهذا بالضبط ما يمكن أن يتحقق في مكان العمل الذي يتّبع نموذج التحرر. في مؤسسات عصر الصناعة، تصنع القرارات المهمة وتصدر في قمة معزولة عن جسد ينشغل أفراده بالتعامل مع المفكات وغيرها من الأدوات، أما في مؤسسات عصر عمال المعرفة/ المعلومات فإن القيادة تكون موزعة على الثقافة بأثرها. وتتركز الجهود على مساعدة الناس في اكتشاف نواحي قوتهم وهي مواهبهم الطبيعية المتفردة، و هكذا يصير الناس أشد رغبة في أن يكونوا جزءاً من فريق يتكامل أفراده وأن يفيد أيضاً من نواحي قوتهم، ويعوض نواحي ضعفهم من خلال حضور نواحي قوة غيرهم في الفريق. هذا تحول في النموذج الأساسي، يستحضر فكرة كوبرنيكوس عن كون الشمس هي مركز الكون، التي أزاحت المفهوم البطلمي الذي كان يضع الأرض لا الشمس في موقع المركز.

وأخيرًا، فإن هذا الكتاب يساعدنا على فهم الحكمة البسيطة الساكنة في حكايات هانز كريستيان أندرسون: وبهذا يقدم لنا وصفاً مجازياً مناسباً تماماً ومجسداً تمام التجسيد لهذا التحول في النموذج الأساسي الذي يحدد طريقة رؤيتنا لأنفسنا وللآخرين. أما الأسلوب

الذي يقوم على السيطرة الخارجية فلا نرى من خلاله إلا أجزاء منفصلة من الإنسان، وأما الأسلوب الذي يقوم على التحرر فنرى فيه الإنسان كلاً متكاملاً: جسداً وعقلاً وروحاً. وفي رأيي، على الرغم من أن ميتي كتبت ما كتبت وهي تقصد مكان العمل، فإن ما تقدمه من دروس لا يقل أهمية وفائدة في البيت والمجتمع؛ بل في تلك المساحة الخاصة بين الإنسان وقلبه.

أتمنى لكم التمتع والاستفادة من هذه المادة بالقدر الذي استفدته واستمتعت به. وإني لأوصي بها مادة للنقاش في فرق العمل وبرامج التدريب والتنمية. فالفكاهة التي تحويها ستكون كالزيت الذي يتيح حركة أسلس نحو تغير إنساني وشخصي.

د. ستفين ر. كوفي

مؤلف كتاب «العادات السبع» لأكثر الناس تأثيراً
وكتاب «العادة السابعة»

المقدمة

قد يمنحنا العمل الحياة، ولكنه قد يقتلنا أيضاً



في تفاعلاتي مع القادة لاحظت أربعة أنماط متكررة. أولاً، أغلب المحترفين المتخصصين أصحاب طموح وموهبة وجهد وافر. كما تتوافر لديهم معرفة عملية بما يلزم لتحقيق النجاح من خطوات وقواعد وعادات وطقوس. وكذلك فهم يسعون بلا هوادة للارتقاء بأدوارهم المختلفة: مديرين وقادة، وأزواجاً وآباء وأمهات، ورياضيين. هذه الأنماط الشخصية الثلاثة تجعلهم مشغولين إلى درجة تدفعهم دفعاً إلى نمط رابع: فهم نادراً ما يخففون من سرعتهم أو يمعنون التفكير حتى ينفذوا إلى جوهر وجودهم، أي حكمتهم الداخلية.

وكتابي هذا يخاطب كل من يريد أن تكون اختياراته ذكية وحكيمة، وكل من يريد مستوى معيشة مريحاً، وحياة ذات جودة عالية. وهو يخاطب أولئك الذين يريدون أن يشعروا بأنهم أحياء في عملهم، أي أن تكون لهم حياة عملية نابضة.

يدعوك كتابي هذا إلى التفكير في أسئلة شديدة الأهمية عن معنى الحياة والعمل ولكن بخفة ظل. فبدلاً من دراسة أفلاطون أو ديكارت، سنتعلم من البطّ الدميم، ومن قزم يشبه ذلك الذي يحرس كنوز باطن الأرض، ومن عندليب. وبدلاً من تأويل دانتي وشكسبير سنستكشف حياة إمبراطور مغرور، وخنفس روث متعجرف، وشجرة تنوب ساخطة. أي أننا سنستخدم القصص الخيالية لنفهم الطبيعة البشرية. فقد استخدم الكبار الحكايات الخيالية لقرون عديدة لمواجهة أزمات الحياة اليومية وصراعاتها، وكذلك ليساعدوا الصغار على فهم مغزى الحياة، وعلى التعامل مع مفاجآتها المؤلمة.

ولدت في الدنمارك ونشأت فيها، وهكذا كانت حكايات هانز كريستيان أندرسون الخيالية جزءاً أصيلاً في تربيتي. وفي بيتنا، كانت الطبعة التذكارية الخاصة بمرور 150 عاماً على طباعة هذه الحكايات إلى جانب الموسوعة ذات المجلدات الاثني عشر. كان كتاب الحكايات ثقيلاً، له كعب جلدي وأطراف صفحاته مذهّبة، وكنا نتناوله بحب وتوقير. وفي الأماسي، بعد أن يتم تنظيفنا نحن الأطفال وإعدادنا للنوم، يمد والدي يده ليأتي بالكتاب من مكانه على الرف، ويقرأ لنا. وقتها، كانت الحكايات البسيطة هي الأثيرة عندي، مثل «الأميرة وحبة البازلاء» و «مربي الخنازير»؛ وغيرها من الحكايات التي كانت تحزنني أو تفزعني أو تصيبني بالاضطراب. ولم أبدأ في إدراك عمق تلك القصص إلا وأنا راشدة. كنت في السابق أبكي لموت عروس البحر الصغيرة، والآن أفهم جمال الحب غير المشروط. وبينما كنت أظن سلوك كلاوس الصغير (في حكاية كلاوس الصغير وكلاوس الكبير) مخادعاً وذميماً، أراه الآن رجلاً ضعيفاً يهزم طاغية بذكائه. اكتشفت ما يعرفه كل دنماركي، أن قصص أندرسون كتبت للصغار والكبار جميعاً.

زاد تقديري لهذا الأديب مع السنين؛ وعندما بدأت أدرس ما كتبه المتخصصون في كتابات أندرسون، فهمت أن لكتابات الرجل نسقاً واضحًا. فأبطاله صادقون، متآلفون، وحقيقيون، وأشرار حكاياته ضيقو الأفق، مغرورون ومتعجرفون. وكل ما يتمناه هذا الأديب هو أن نستمتع بكل لحظة وأن نكبر ونحقق الأمل المرجو منا. هذه الفلسفة قريبة جداً من قلبي ومن عملي.

في سنوات التكوين، كان أندرسون يقضي ساعات طويلة يستمع إلى العجائز، يقصصن الحكايات الشعبية في غرفة الغزل، حيث كانت تعمل جدته، وكانت قصصه الأولى من وحي تلك الحكايات. ولكن أجمل قصصه وأرقاها هي التي تندمج فيها الحكمة الشعبية مع خبرته الشخصية و خياله.

وللأسف، لا يدرك معظم الناس في العالم الأنغلو أمريكي عمق كتابات أندرسون. فقد صُنف الرجل على أنه مؤلف أطفال طريف من العصر الفيكتوري، فنزع ذلك التصنيف من قصصه ما تحمله من بصيرة وفكاهة لاذعة. وأرجو أن تساعد ترجماتي الجديدة لقصصه في هذا الكتاب على تصوير تلك الفكرة. فمن خبرتي الشخصية أرى أن إفراط الإمبراطور في استخدام قوته وتعسفه، وأن سخط شجرة التنوب على حالها، مثلاً، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بظروف مكان العمل في القرن الواحد والعشرين.

ولكي أساعد قرائي على أن يروا أندرسون كما نراه نحن الدنماركيين، فإنني سأشير إليه في الكتاب كله باسم هـ. ك. أندرسون. ففي الدنمارك لا يسميه أحد هانز كريستيان أندرسون، ففي استخدام الاسم الأول رفعٌ للكلفة، كما أن استخدام أندرسون وحدها لن يفي بالغرض فما أكثر من يحملون هذا الاسم: لذا فهو عندنا دائماً هـ. ك. أندرسون.

ينقسم الكتاب إلى ستة فصول مستقلة، كل فصل مبني على واحدة من حكايات هـ. ك. أندرسون. و لك أن تقرأ هذه الفصول بالترتيب القائم أو أن تبدأ بالفصول التي تثير اهتمامك أكثر من غيرها.

ثلاث من حكايات الكتاب تحذيرية: «ملابس الإمبراطور الجديدة»، و«خنفس الروث»، و «شجرة التنوب». فهي تبين لنا عواقب المغالاة في الاهتمام بآراء الآخرين فينا ومكافأتهم وتقديرهم لنا. والحكايات الثلاث الأخرى محفزة: «البط الدميم» و «القزم عند البقال» و «العندليب»، فهي تعالج موضوعات الشغف والتوازن والتمكن المهني. مجموعة الموضوعات الأولى عملية إلى حد كبير، وتستلزم «أفعالاً»، والثانية مثالية في جوهرها، إذ تتعلق بكيان الفرد. ومن بين ما نتعلمه من هذه الحكايات أن المرء لا ينبغي أن يستغرقه جانب دون الآخر وإلا ضاع في نشاط لا هدف له، أو استغرقته ذاته تماماً.

العملية والمثالية كلاهما مفيد إذا تكاملا. ولكن توقعات الناس منا تكاد تضمر اهتماماتنا. بل إن الكثير منا يستبعد شغفه الشخصي باعتباره غير عملي، ويشعر بمسؤولية أكبر نحو أهداف المؤسسة لا نحو إمكاناته الشخصية. إذا كنت من هؤلاء، فقد حان الوقت لأن تُكسب عملك بعض الحكمة.

كل فصول الكتاب لها بنية واحدة، تتيح لك اختيار أسلوب تعاملك مع القصص. فبعد فقرات تقديمية، يمكن أن تقرأ الملخص، أو القصة الكلاسيكية الكاملة قبل أن تنتقل إلى تعليقي المعنون «تطبيقات

الحكاية». ولك أن تقرأ الملخص إن أردت الانتقال مباشرة إلى تطبيقات الحكاية، وبوسعك أن تعود إلى القصة الكاملة وقتما شئت.

ويمكنك أن تتعامل مع الكتاب باسترخاء، أو تعيش فيه وتتأمل القضايا التي يطرحها، وربما تختلف استنتاجاتك من كل قصة عن استنتاجاتي، فهذا يحدث كثيراً في أماكن العمل، وفي مناقشاتي مع الأسرة والأصدقاء. فقد تعلم كل منا دروساً عن الطبيعة الإنسانية والحياة تختلف عما تعلمها غيره.

تقدم القصص طريقة ممتعة في تناول القضايا الشائكة مع زملائك. فقصة «ملابس الإمبراطور الجديدة» مثلاً تسمح لك أن تتحدث عن الأشياء «غير القابلة للنقاش» في فريق عملك. وتمكنك قصة «البط الدميم» من التحدث عن إمكانية أن يشجع بعضنا بعضاً على إبراز نواحي قوتنا: لذلك أقترح في نهاية كل فصل موضوعاً أو أكثر للمناقشة الجماعية.

إن شغفي الأكبر هو مساعدة الأفراد على أن يكونوا صادقين وأحياء بحق في عملهم، وكذلك المساعدة في خلق أماكن عمل تسمح بإطلاق أقصى طاقات العاملين بها. وإن حكايات هـ. ك. أندرسون تقدم النموذج المحفز على ذلك: فهي تبين لنا كيف نحرر الحياة لا أن نتحكم بها.

وإني أدعوك أن تصحب هـ. ك. أندرسون إلى عملك. ولا حاجة لك لأن تتأبط كتابه وتذرع ممرات الشركة وأنت تردد قصة «البط الدميم»: بل دع الحكاية تحفزك للتفكير في معانٍ أعمق، وإطلاق

طاقة أكبر، والشعور بمتعة أشد، فهذا من شأنه أن يخلق لك حياة عملية أو يرتقي بحياتك العملية الحالية.

ولماذا ترجمات جديدة؟

ستجد ترجماتي الجديدة لحكايات هـ. ك. أندرسون داخل كل فصل. وهدفي من ذلك علاج العيوب الكثيرة التي في الطبعات المنتشرة. فإن قدراً كبيراً من الفكاهة وثراء التفاصيل التي تتميز بها حكايات هـ. ك. أندرسون تضيع في نسختها الإنكليزية ترجمة وراء أخرى. فلقد كان المترجمون الإنكليز الأوائل لا يكادون يعرفون اللغة الدنماركية، فكانوا يترجمون الحكايات عن النصوص الألمانية المتاحة. ومما زاد المشكلة تعقيداً أنهم كانوا يتدخلون في النص ذاته: فيبدلون فيه ما يجعله مناسباً لأذواق العصر الفيكتوري، فحذفوا كثيراً من تعليقات أندرسون النافذة واللاذعة. ومازالت التحديات تواجه المترجمين إلى اليوم مع اختلاف ما قد واجهه من سبقهم من تحديات: فالناشرون اليوم غالباً يريدون أن يكسبوا النصوص التي عمرها 150 عاماً سلاسة وإحساساً بالمعاصرة. وأكتفي بمثالين على هذا.

ففي قصة «ملابس الإمبراطور الجديدة» يستغل النصابان خوف الناس من اعتبارهم «غير أكفاء لمراكزهم، أو أغبياء إلى درجة غير مسموح بها». الترجمة المباشرة للتعبير الدنماركي الأصلي «utilladelig dum» هو ما ذكرناه، وهو غير معتاد في الإنكليزية. ومن

هنا استخدم المترجمون إلى الإنكليزية في الماضي مفردات من نحو: غير مقبول «inadmissibly»، أو «لا يمكن إصلاحه «incorrigibly» أو لا يمكن العفو عنه «unforgivably» أو لا أمل في تغييره «hopelessly»، ولكن التعبير الدنماركي نفسه غير معتاد في اللغة الدنماركية نفسها. ما أراه أن اختيار هـ. ك. أندرسون الغريب يسمح لنا أن نقول إننا قد نجد غباءً «مسموحًا به» في حياتنا، وبالمثل هناك غباء حقيقي وهو «غير المسموح به».

ثمة مشكلة أكبر في الترجمات المعاصرة، وهي أنها قد تغير معنى النص الأصلي نفسه. فعلى سبيل المثال، في المجموعة الكاملة لقصص وحكايات هانز كريستيان أندرسون (1974) Hans Christian Anderson:The Complete Fairy Tales and Stories نجد في ترجمة قصة «خنفس الروث» أن الضفدعين اللذين لا يُحتملان: في النص الأصلي لا يعدو كلامهما أن يكون من باب النقد. فأحدهما يود أن يعرف:

... إذا كان العصفور الذي يسافر كثيراً في بلاد أجنبية، قد زار أرضاً مناخها أفضل من مناخنا، بها كل ما تحتاج من مطر وبعض الرياح، هذا غير الضباب والندى. إن الحياة في هذا الجو مثل الحياة في مصرف للماء. إن لم تحب هذا المناخ، فإنك لا تحب بلدك.

أما ترجمتي الأقرب إلى الأصل فتبين أن الضفدع يود أن يعرف فعلاً:

> لو كان العصفور الذي يجوب كل الأجواء، لو أنه في رحلة من رحلاته الكثيرة قد وجد مناخاً أفضل من مناخنا، برياحه وأمطاره، وكأننا نعيش في مصرف مياه. فإن كان ذلك لا يسعد الواحد منا، فإنه بالتأكيد لا يحب وطنه.

الترجمة الثانية أدق، إذ تبين لنا كيف يستثير هـ. ك. أندرسون حواسنا ليجعلنا نحس بالصباح المطير شديد الرياح. الأهم من ذلك هو الإزعاج الذي تمثله كلمة «بالتأكيد»، ولو سقطت هذه الكلمة لتحولت الجملة إلى مجرد ملاحظة عابرة، ولكن أندرسون أراد أن تكون الجملة تقريرية تعبر عن صفة التعالي الأخلاقي أو استثناء الذات من الخطأ التي تصم قائلها ـ الضفدع في الحكاية ـ فهذه الصفة نراها عندما نسمع جملاً مثل «بالتأكيد بالغت كثيراً» أو «إنه بالتأكيد لا يصلح لاعباً ضمن فريق».

كثيراً ما خوطب هـ. ك. أندرسون بمثل هذه اللهجة التقويمية فقد كان يعاب عليه حبه للسفر وإعلانه ذلك، وكذلك كثرة عدد أصدقائه من الألمان. وكان الحوار بين الضفدعين المغرورين المتعجرفين دعوة منه لنا لأن يسأل كل منا نفسه: هل بداخلي ضفدع لا يطاق؟ ولحسن الحظ فإن أندرسون يفعل ذلك بخفة ظل ويتجنب الوعظ والتبشير الأخلاقي، كما أنه ينتقل بسرعة من لوحة إلى أخرى.

كـان هدفي من هذه التـرجـمـات الحـفـاظ على أسلوب هـ. ك. أندرسون المتميـز واختيـاره للمفردات قدر الإمكان. ومن هنا فقد تجد بعض التـعبيـرات الغريبـة بل والمركبة أحياناً، وأنا على ثقة أنك ستقدر الجدة والبصيرة الجديدة التي ستجنيها مقابل هذا التسامح.




IMPERIAL CLOTHIN

1

حكاية

ملابس الإمبراطور الجديدة

عندما نسعى إلى التوافق، فإننا نتبنى أجندة الآخرين



«منذ سنوات بعيدة عاش إمبراطور بلغ عشقه لاقتناء الملابس الجديدة الجميلة حداً جعله ينفق كل ماله حتى يكون في أبهى الملابس». بهذه الجملة الافتتاحية، تبرز القصة كيف يمكن أن يجعلنا الغرور نبدو بمظهر رائع وسلوك أحمق في آن واحد.

ولا يقصد هـ. ك. أندرسون انتقادنا لأننا اخترنا أن نؤدي دوراً معيناً، أو أن نرسم لأنفسنا صورة معينة: فالرجل نفسه شديد التأنق، وبارع في رسم صورته في عيون الناس. لم يكن يزعج الرجل إلا المظهر الكاذب. وهذه الحكاية اللاذعة كانت وسيلته في التهكم على الادعاء والنفاق. فهو يتهكم على استعدادنا للتظاهر بالإعجاب بأشياء لا نقبلها أو نفهمها، حتى يقبلنا الناس.

وبينما تقرأ الملخص التالي أو ـ إن شئت ـ القصة الكاملة، أدعوك لأن تفكر في الأسئلة التالية: ما الذي يجذبك للحكاية؟ ما الذي يزعجك فيها؟ هل تذكرك بمواقف تصرفت فيها بحماقة بسبب غرورك أو خوفك؟

ملخص الحكاية

كان بالإمبراطور شغف بالملابس، صرفه عن كل شيء سواها. فإذا قيل عن أي ملك إنه في غرفة المشورة، يقال عنه هو «الإمبراطور في غرفة الملابس».

وذات يوم جاء نصابان وادعيا أنهما يستطيعان نسج أعظم وأرقى قماش، له صفة غريبة: إذ لا يراه كل من «ليس بكفء لموقعه» أو «غبي لدرجة غير مسموح بها». ورأى الإمبراطور في ذلك وسيلة رائعة يعرف بها غير الأكفاء لمناصبهم عنده والعاطلين عن الحكمة، فأمر بصنع ذلك القماش على الفور.

علم الناس جميعاً بقوة القماش الغريبة، وكل منهم يتوق لاكتشاف قدر غباء جاره أو عدم كفاءته. وبعد حين أراد الإمبراطور أن يعرف مدى سرعة سير العمل في صنع القماش، فقد كان يعتريه القلق بشأن ما يتمتع به هذا القماش من قوة غريبة. فأرسل أول الأمر أحد وزرائه الثقات، وبعده أحد موظفيه المحبوبين، ليستطلعا الأمر. ولم ير أي من الرجلين شيئاً، لأنه لم يكن هناك شيء يرى. فسأل كل منهما نفسه «هل ممكن أن أكون غبياً»، «هل أنا غير كفء لمنصبي؟» ولكنهما قررا إخفاء الأمر: فأخذا يبالغان في مدح القماش وألوانه الزاهية وما عليه من نقوش.

بعدها بأيام وصل الإمبراطور مع حاشيته ليرى بنفسه. وأمام الفراغ، وقف الإمبراطور يتساءل «ما هذا؟ أنا لا أرى شيئاً. هل أنا غبي؟ هل لا أصلح لأن أكون إمبراطوراً؟» لكنه لم يرد لأحد أن يعرف ذلك فصاح قائلاً «ما أروع هذا القماش!»

أمعن أفراد الحاشية النظر المرة تلو المرة، لكن ذلك لم يُجد شيئاً. إذ انتقلت كلمات الإعجاب «كم هو رائع»، «جميل»، «ممتاز» من فم إلى آخر بينهم، حتى نصحوا الإمبراطور بصنع ملابس موكبه القادم من هذا القماش.

وفي الليلة السابقة للموكب تظاهر النصابان بأنهما مشغولان في قص القماش وخياطة الملابس، وفي الصباح طلبا من الإمبراطور أن يخلع ملابسه كلها و«ألبساه» الملابس الجديدة.

وفي طريق الموكب كان الناس يحيونه ويصفقون إعجاباً بأبهى حلة ارتداها الإمبراطور. ولكن فجأة صاح طفل صغير: «ولكنه لا يرتدي شيئاً» فأخذ الناس يتهامسون فيما بينهم بما قاله الطفل: «ولكنه لا يرتدي شيئاً» وسرعان ما صاح الجميع: «لكنه لا يرتدي شيئاً».

ارتجف الإمبراطور، لأنه رأى أنهم على صواب، ومع ذلك، كان عليه أن يكمل رحلة موكبه، وقد فعل.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم ... أن هـ. ك. أندرسون نشر ثالث مجموعة من حكاياته في العام 1837. وقد تضمنت حكايته الخيالية المأساوية «عروس البحر الصغيرة» و قصته اللاذعة «ملابس الإمبراطور الجديدة».

وقد لاقت المجموعتان الأوليتان استقبالاً فاتراً. فكتب في مقدمة المجموعة الثالثة أن الناس «لم يجدوا في القصص شيئاً ذا بال» ونصحوه ألا يستمر في كتابتها. وقال: «إن الأديب لا يجد التقدير دائماً في وطنه الصغير. وهذا يجعل الشهرة طائراً ذهبياً يحاول المرء جاهداً الإمساك به. وسيقرر الزمن فيما لو استطعت الإمساك بطائر الشهرة عن طريق قص الحكايات الخيالية أم لا». ولقد قال الزمن كلمته: فلم يتوقف أندرسون عند ابتداع جنس أدبي جديد، وإنما أحدث تحولاً واضحاً في اللغة الدنماركية المكتوبة، وفوق هذا وذاك، حقق الرجل ما كان يتوق إليه طوال عمره من الشهرة والخلود.

وقصة «ملابس الإمبراطور الجديدة» مستوحاة من قصة إسبانية ظهرت في القرن الرابع عشر، كتبها إنفانتي دون خوان مانويل ونشرها في مجموعته El Conde Lucanor (1735)، وهي عبارة عن حكايات تعليمية أصلها قصص يهودية وعربية. ففي القرون الوسطى كان ما يقرر مصير الإنسان هو نسبه وليس فضائله. ومن هنا كانت خدعة النصابين هي أن من لا

يرى القماش فإنه يكون ابناً غير شرعي لمن يعتقد أنه أبوه، ومن يعتبره الناس ابناً غير شرعي فسيفقد اسمه ومركزه وميراثه وتؤول ثروته إلى الخاصة الملكية. ولنا أن نتصور فزع الملك، الذي يتوقع المكاسب، عندما وجد أنه نفسه لا يرى القماش. أليس هو الوريث الشرعي للعرش؟

وفي النهاية، قام رجل إفريقي لا يعرف ـ أو لا يهتم ـ بمسألة نسبه، وقال للملك إنه عارٍ كما ولدته أمه. وبعد أن اعترف الملك بحماقته، سعى الجميع للإمساك بالنصابين، لكنهما كانا قد رحلا بعيداً.

الحكاية الكلاسيكية

منذ سنوات بعيدة، عاش إمبراطور بلغ عشقه للملابس الجديدة الجميلة حداً جعله ينفق كل ماله حتى يكون في أبهى الملابس. لم يكن يهتم بجنوده، ولم تكن تمتعه المسرحيات أو النزهات في الغابة، إلا لأنه يستعرض فيها ملابسه الجديدة. كان عنده ثوب لكل ساعة من ساعات اليوم. فإذا قيل عن ملك غيره إنه في غرفة المشورة: قيل عن هذا الإمبراطور إنه «في غرفة الملابس».

كانت المدينة الكبيرة التي يعيش فيها مدينة رائعة، يأتيها الزائرون كل يوم، وذات يوم، جاء نصابان وادعيا أنهما نساجان، وقالا إنهما يستطيعان نسج أرقى قماش يمكن أن يتخيله إنسان. ليس ذلك بسبب جمال ألوانه ونقوشه التي لا مثيل لها؛ بل لأن تلك الملابس مصنوعة من نسيج له صفة غريبة: إذ لا يراه من كان غير كفء لمنصبه، ولا من كان غبياً لدرجة غير مسموح بها.

قال الإمبراطور في نفسه: «لابد أن هذه الملابس مدهشة، فإذا ارتديتها فسأعرف أيَّ رجالي لا يصلح لمنصبه، و بها يمكنني تمييز الحكيم من البليد، لابد إذن من نسج هذا القماش فوراً». وسلّم الدجالين أموالاً كثيرة حتى يبدأا في العمل.

وضع الرجلان نولين وتظاهرا بأنهما يعملان، لكنهما لم يضعا أي شيء في النولين مطلقاً. وكانا ـ بكل جرأة ـ يأمران بأرقى أنواع

الحرير وأنفس سبائك الذهب، ثم يضعان ذلك كله في حافظتيهما، ويستمران في العمل بالنولين الفارغين حتى ساعات متأخرة من الليل.

قال الإمبراطور في نفسه: «ترى كم أنجزا من العمل في القماش؟» ولكنه شعر بقلق بالغ عندما تذكر أن كل غبي وكل غير كفء لمنصبه سيعجز عن رؤية القماش. لم يكن يظن أن لديه سبباً شخصياً للخوف، ومع ذلك قرر أن يرسل شخصاً غيره ليستطلع الأمر. كان أهل المدينة بأسرها قد علموا بأمر القوة الغريبة التي تكمن في القماش، وكان كل واحد منهم ينتظر أن يرى في جاره الغباء وعدم الكفاءة.

قال الإمبراطور في نفسه: «سأرسل وزيري العجوز الأمين إلى النساجين، فهو خير حَكَمٍ على شكل القماش: لأنه ذكي ولا يفوقه أحد في القيام بمهام منصبه».

وهكذا ذهب الوزير العجوز الطيب إلى القاعة التي يقيم بها النصابان ويعملان على نوليهما الفارغين. قال الوزير العجوز في نفسه، وهو يفتح عينيه ويحملق فيما أمامه، «يا ربي، أنا لا أرى شيئاً!»، لكنه لم يعلن ذلك.

دعاه كلا النصابين لأن يقترب وسألاه، وهما يشيران إلى النول الفارغ، أن يشاركهما الرأي بأن تصميم القماش جميل وألوانه بديعة. أخذ الوزير العجوز المسكين يفتح عينيه ويحملق في الفراغ، ولا يرى شيئاً: لأنه لم يكن هناك شيء يُرى. فقال في نفسه: «ياربي! هل من الممكن أن أكون غبياً؟، ما كنت لأظن ذلك في نفسي قبل الآن، ولا

ينبغي أن يدري بهذا أحد. هل أنا غير كفء لمنصبي؟ لن أقول أبداً إنني لا أرى القماش».

قال له النصاب الذي ينسج: «ما لك لا تقول شيئاً يا سيدي؟!»

فرد عليه الوزير العجوز وهو ينظر من خلال عدسات نظارته: «إنه جميل! رائع! يا له من تصميم! ويا لها من ألوان جميلة! سأخبر الإمبراطور بأنها أعجبتني كثيراً».

قال النصابان كلاهما: «جميل، يسعدنا أن نسمع ذلك». ثم أخذا في وصف التصميم الغريب وتحديد كل لون باسمه. وكان الوزير العجوز ينصت لهما كل الإنصات حتى يحفظ ما قالا وينقله حرفياً إلى الإمبراطور عندما يعود إليه. وهذا ما فعله تماماً.

بعد ذلك طلب النصابان مزيداً من المال والحرير والذهب ليستمرا في نسج القماش. وكانا يضعان ذلك كله في جيوبهما بينما لا يوجد خيط واحد على النولين. لكنهما استمرا، كسابق عهدهما، في النسج على النولين الفارغين.

وما لبث الإمبراطور أن أرسل مسؤولاً طيباً آخر، ليرى كيف تتقدم عملية النسج، وهل سينتهي العمل في القماش قريباً. وكما حدث مع الوزير، أطال المسؤول النظر وحدق، ولأنه لم يكن هناك شيء سوى النولين الفارغين: لم ير الرجل شيئاً.

بادره النصابان بالقول: «أليست قطعة قماش جميلة؟!» وشرعا يريانه التصميم، الذي لم يكن له وجود على الإطلاق، ويشرحانه.

قال الرجل في نفسه: «أعلم أنني لست غبياً، فلابد إذن أنني غير كفءٍ لمنصبي الرفيع. وهذا أيضاً أمر غريبٌ، ولكن ينبغي ألا يلاحظ أحد». ثم امتدح القماش الذي لم يكن يراه، وأكد لهما أنه سعيد بالألوان الجميلة والتصميم الرائع." وقال للإمبراطور: «إنه حقاً قماش فاتن». وكان كل من في المدينة يتحدث عن القماش الرائع.

وسرعان ما أراد الإمبراطور أن يرى القماش بنفسه، وهو ما يزال على النولين. فاصطحب حاشية من رجاله المخلصين ـ وكان من بينهم المسؤولان العجوزان الطيبان اللذان ذهبا إلى هناك من قبل ـ لزيارة الدجالين الخبيثين، وكانا آنذاك ينسجان بأقصى سرعة دون خيط أو غزل.

قال المسؤولان الطيبان: «أليس رائعاً؟! انظر يا سمو الإمبراطور إلى التصميم والألوان». وأشار كلاهما إلى النولين الخاليين، ظناً منهما أن الجميع يرون القماش.

قال الإمبراطور في نفسه: «ما هذا؟ إنني لا أرى شيئاً! هذا أمر فظيع، هل أنا غبي؟ هل لا أصلح لأن أكون إمبراطوراً؟ هذا أفظع شيء حدث لي». ولكنه قال لمن حوله: «ياه! إنه غاية في الجمال. وقد راقني تماماً». ثم أومأ برأسه ليعبر عن رضاه وهو ينظر إلى النولين الخاليين. لم يشأ الإمبراطور أن يقول إنه لم يكن يرى شيئاً. نظر أفراد الحاشية مرة بعد مرة، فلم يروا شيئاً يختلف عما رآه غيرهم. ولكنهم جميعاً قالوا مثلما قال الإمبراطور: «ياه! إنه غاية في الجمال»،

ونصحوه بأن يبادر بارتداء هذه الملابس الرائعة في موكبه الكبير القادم. «إنها رائعة!»، «بديعة»، «ممتازة»، انتقلت هذه الكلمات من فم إلى فم، وكان الجميع سعداء بالقماش. حتى إن الإمبراطور منح كلاً من النصابين وساماً يعلقه على صدره، ولقب «فارس نسّاج».

سهر النصابان طوال ليلة الموكب تضيء غرفتهما نحو ست عشرة شمعة. وكان الناس يرون أنهما منهمكان في العمل للانتهاء من ملابس الإمبراطور. تظاهر الرجلان بأنهما يرفعان القماش عن النول، وشرعا يقصان في الهواء بمقص كبير، ويحيكان بمخيط وراء آخر كلها بلا خيط، وفي النهاية قالا: «انظر! الملابس جاهزة الآن».

جاء الإمبراطور بنفسه بصحبة أرفع مرافقيه، ورفع النصابان ذراعيهما كأنهما يحملان شيئاً، ثم قالا: «ها هو السروال! وها هو المعطف! وها هي العباءة!». وهكذا حتى قالا: «إنها خفيفة كنسيج العنكبوت! حتى لتظن أنك لا ترتدي شيئاً، ولكن ذلك في حد ذاته هو سر جمال هذه الملابس».

قال المرافقون : «نعم». لكنهم لم يكونوا قد رأوا شيئاً: إذ لم يكن هناك شيء يُرى.

قال النصابان: «هلا تفضلتم جلالتكم بنزع ملابسكم هذه حتى نتمكن من إلباسكم الملابس الجديدة هنا أمام المرآة الكبيرة!»

خلع الإمبراطور كل ملابسه، وتظاهر النصابان بأنهما يناولانه الملابس التي يفترض أنهما قد صنعاها قطعة قطعة. لف الرجلان

أيديهما حول وسطه كأنهما يربطان شيئاً ـ كان ذلك ذيل الرداء ـ وكان الإمبراطور ينثني ويدور بجسده أمام المرآة.

قال الجميع: «يا سلام! إنه مقاسك تماماً، إنه رداء ثمين».

وقال كبير رجال المراسم الإمبراطورية: «إنهم ينتظرونك خارج القصر ومعهم المظلة الإمبراطورية التي ستظلل جلالتكم في الموكب».

رد الإمبراطور: «نعم. أنا جاهز الآن. أليست ملابسي تناسبني تماماً؟» ثم استدار مرة أخرى أمام المرآة: حتى يبدو كأنه ينظر إلى الرداء الرائع فيها.

أما خدم الإمبراطور، ومهمتهم حمل ذيل ردائه، فتحسسوا الأرض بأيديهم وتظاهروا بأنهم يحملون ذيل الرداء، ومشوا وهم يحملون الهواء. ولم يكن من بينهم من يجرؤ على القول بأنه لا يرى شيئاً.

مشى الإمبراطور في الموكب تحت مظلته الجميلة. وكان الناس جميعاً في الشوارع ونوافذ البيوت يقولون: «يا سلام! ما أروع ملابس الإمبراطور الجديدة! ما أجمل ذيل الرداء المتدلي من معطفه! كم تبدو هذه الملابس متناسقة! لم يرتد الإمبراطور رداءً بهذا الجمال من قبل». لم يشأ أي منهم أن يعرف أحد أنه لا يرى شيئاً: وإلا سيعرفون أنه غير كفء لموقعه، أو أنه شديد الغباء.

قال طفل صغير: «لكنه لا يرتدي شيئاً!» عندها قال أبوه: «يا إلهي! استمعوا إلى صوت هذا الطفل البريء». فهمس أحدهم لمن

بجـواره بما قـاله الطفل: «إنه لا يرتدي شـيئـاً! ثمـة طفل يقـول إنه لا يرتدي أي شـيء».

وفـي النهاية صاح الجميع: «إنه لا يرتدي شيئاً!» ارتجف الإمبراطور لأنه أدرك أنهم على صواب. لكنه قـال في نفسـه: «لابد أن أتم مسيرة الموكب». ثم تصـرف على نحـو أشـد تكبـراً، ومن ورائه خـدمه يحـملون ذيل الرداء الذي لم يكن موجوداً على الإطلاق.



تطبيقات الحكاية

عندما ينخدع المرء بكلام غير معقول بدلاً من أن يثق بقدرته على الحكم، أو عندما يمنعه الخوف من أن يقول في العلن ما يؤمن به حقاً تُذكر حكاية «ملابس الإمبراطور الجديدة». وفي الحالتين، نرمي إلى ضرورة أن يواجه الإنسان الحقائق وألا يمنعه الخوف من قول الحق. ولا شك أن القول هنا أسهل كثيراً من الفعل، فإن البشر بطبيعتهم لا يحبون أن ينبذوا. فلقد كان الفرد يعتمد لآلاف السنين في وجوده على القبيلة، وكان استبعاده منها يعني فقدان هويته بل حياته نفسها. وحتى لا يلاقي هذا الفرد ذلك المصير: فإنه إلى اليوم «يتعاون» مع غيره ليشكل ولاءات، وفي الوقت نفسه يتنافس مع غيره على مكانه وسط العشيرة.

وكما سنرى، فإن التوافق أمر طبيعي، ولأننا مخلوقات اجتماعية: فكلنا يستمتع بعلاقاته مع غيره وهي هدف في ذاتها (لما نسميه قضاء وقت ممتع). ولكن عندما نغالي في العملية، أو عندما ندير حياتنا المهنية، يمكن للعلاقات الإنسانية أن تكون «غرضية» أي وسيلة لا غاية (نقوم بدور ونؤديه بأمان). ولكنّ للتوافق جانبًا سلبيًا، فأحياناً يصور الواحد منا ذاته على نحو أكبر بكثير من حجمها؛ فيتصور الوهم حقيقة أو يستبعد الحقائق تماماً أو يتجاهلها، حتى يبقي على مكانته أو سمعته. و حل ذلك بسيط لكنه مؤلم: فلابد أن نتخلص من الادعاء ونرتبط بالواقع الملموس. ينبغي أن نعرف الوصف الحقيقي لما يجري، ولو بيننا وبين أنفسنا.

التلاؤم أمر فطري

يحدث توافق الفرد مع أي جماعة أو فئة ثقافية، عندما يلتزم بقواعدها ويقبل تصورها لمفهوم النجاح، سواء أكانت هذه الجماعة هي الأسرة أم النادي أم مكان العبادة، أم الفئة ذات أسلوب الحياة الخاص، أم مجتمع الشركة، أم الأمة بصفة عامة.

إن التوافق مع من حولنا أمر طبيعي، نسعى إلى فهم وسائله قبل أن نبلغ الثامنة، فنتعلم كيف نلون الصور دون أن نخرج عن حدود خطوطها، وأن نجتهد لنكافأ بنجوم ذهبية تلصق على دفاترنا المدرسية، وأن نكتسب رضا والدينا ومدرسينا. كما أننا لا ننسى ألم الاستبعاد أو الرفض أو النبذ. ما علينا إلا الاستماع إلى الأطفال عندما يرفض الآخرون اللعب معهم، أو إلى المراهقين عندما يستبعدون من الدعوة إلى حفل ما، فعندها سنستدعي ما يماثلها من تجاربنا الشخصية الأليمة. فربما يعتصرنا الألم اليوم عندما نستبعد من اجتماع مهم.

تقول دراسات المسح الدماغي الحديثة، إن الألم الناتج عن النبذ أو الاستبعاد يماثل الألم البدني حدةً: وفي سلسلة من التجارب البسيطة كان ثلاثة طلاب (أحدهم موضع الدراسة والآخران لاعبان افتراضيان) يلعبونب بإحدى ألعاب الفيديو فيتلقفون كرة افتراضية فيما بينهم. بعد مدة يمتنع اللاعبان (الافتراضيان) عن قذف الكرة للطالب موضع الدراسة. وبينما يدرك هذا الطالب أنه يستبعد، أُجري المسح الدماغي عليه فأظهر أن مناطق المخ التي استثيرت هي

نفسها التي تستثار عند الشعور بالألم البدني. فالاستبعاد يؤلم فعلاً، حتى إن النصابين يستعملونه في السيطرة على الآخرين لتحقيق مصالحهم الشخصية. ولأننا نريد أن نتجنب هذا الألم، فإننا نتكيف ونحاول التوافق.

وتعتمد قدرتنا على التوافق على قدر فهمنا للثقافة السائدة، وقابليتنا للتكيف مع قواعد الجماعة، وتبنّي طرائقها في التقييم. وفي ذلك تتباين المعايير تبايناً كبيراً، ولكنها تنتظم في نسقين رئيسيين: بعض الثقافات تركز على حاجتنا للتواصل والتعاون وتكوين العلاقات الدائمة، وثقافات أخرى تؤكد حاجتنا إلى اكتساب المعارف أو المهارات، وإلى التنافس والتفوق على الآخرين.

تميل الثقافات التقليدية إلى تفضيل العلاقات الإنسانية على الإنجازات الشخصية. وتؤيد هذه الثقافات المثل الياباني القائل: «المسمار الذي يخرج عن مكانه يتلقى ضربات المطرقة سريعاً». ويعرف أغلب من نشؤوا في المدن الصغيرة طريقة الحياة هذه. ففي القرية التي نشأت فيها بشمال الدنمارك، لم يكن الاحترام يقاس بالمال، بل كان المرء يكتسبه بالعمل الجاد والنزاهة والإخلاص. وكان التواضع فضيلة مدعاة للفخر. أما من يحيد عن الطريق فسيجد من يقوّمه ويردّه إلى جادة الصواب. لم تكن الأدوار مرتبطة بالكفاءات بل بالواجبات.

وعلى العكس من ذلك، فإن ثقافات المدن الكبيرة أشد ميلاً لتفضيل التقدم والنجاح الشخصي. فعندما عملتُ في لوس أنجلوس، كانت الروابط الشخصية مؤقتة، إذ كان اكتساب المزيد هو جوهر اللعبة. فلقد كان الجميع يقولون لي «لا تجعلي الضوء ينحسر عن اسمك أبداً» و«أنت ما تقودين»، أي قيمتك من قيمة سيارتك، و«الفشل كلمة بذيئة»، و«الرابح هو من يجمع أكبر عدد من اللعب». تهيمن لعبة الجمع هذه على الثقافة الأمريكية، وحتى يحقق المراهقون والراشدون التوافق مع هذه الثقافة اليوم فإن كل واحد منهم يسعى إلى امتلاك فضائه الخاص وتلفازه وجواله وسيارته وحاسوبه وبطاقته الائتمانية. كما أن الجميع يتوقعون امتلاك خيارات كثيرة: عند شراء أي منتج تكنولوجي أو أحذية أو اختيار أماكن قضاء العطلة أو الحي الذي يسكن فيه أو الكلية التي يدرس فيها أو الطبيب الذي يتردد عليه. الكل يريد مستوى معيشيًا في ارتفاع مستمر ويريد ذلك فوراً، فإن عجز عن تحقيقه، ألقى باللوم على الثقافة كلها. وفي ظنّي أن هنري فورد، أبا الاستهلاكية في أمريكا، لو سمع هذا الكلام لطرب له.

فلنقضِ وقتاً لطيفاً

«كانت المدينة الكبيرة التي يعيش فيها الإمبراطور مدينة رائعة، يأتيها الزائرون كل يوم».

تقع أحداث الحكاية في أرض سعيدة خيالية تشبه مدينة ديزني. يرتدي الإمبراطور أجمل الملابس، وتحيطه ابتسامات «طاقم الممثلين»،

ويصطف الجميع ليطلقوا صيحات الإعجاب بالموكب وبمن فيه. وهكذا، يكون التوافق جزءاً من لعبة مرحة خفيفة الظل.

وكما في الحكاية، كلنا نعرف كيف نمضي وقتاً لطيفاً. ففي شبابنا، كنا جزءاً من جماعات أو شلل ليس لنا غرض إلا التسكع وتمضية وقت لطيف. نستمتع بالموسيقى الجميلة والأصدقاء المحبوبين، كأن الحياة عطلة على شاطئ البحر.

وعندما نخرج من طور الشباب، ننسى خفة الظل وتكون الأسباب العملية أساس التوافق مع الآخرين. فلا نكاد نجد وقتاً للقاءات العائلية ولا تسمح لنا التزاماتنا بوقت ممتع نقضيه مع زملائنا، فيضيع الأصدقاء في ذلك الطريق واحداً بعد الآخر.

ولعلنا نتعلم شيئاً من شخصيات حكايتنا. فعلى الرغم من أن الحرص على التوافق يحولهم إلى حمقى إلاّ أنهم لا يتنازلون عن وقتٍ مرحٍ يقضونه.

ولنؤد دورنا

«لم يكن منهم من يسمح لأحد أن يعرف أنه لا يرى شيئاً وإلا سيعرفون أنه غير كفء لموقعه أو أنه شديد الغباء».

لكل واحدٍ منا وجه يظهر به للناس، وجه رجل حليق أو وجه امرأة تجمله المساحيق، وجه نظهر به في العمل. عندما نرتدي هذا الوجه، فإننا نستعد لأداء الدور فلا نقول ولا نفعل إلا ما يتوافق مع صورتنا،

ويساعدنا على المزيد من التوافق مع الآخرين. فنحن نجيد أداء دور المؤيد المتحمس، وإن لم نكن نرى «القماش». فنحن «نفصل» أداءنا على التوقعات.

إن أداءنا لأدوار مختلفة يُضفي الحيوية على حياتنا. أذكر مرة كنت أتناول فيها الغداء مع مجموعة من ضباط الشرطة الكنديين في أثناء برنامج لإعداد القادة، حينما قال أحدهم إنه يلعب دور «الشرطي الشرس» في أثناء التحقيقات، كنت أعلم أن عمله يتضمن التحقيق في حالات الإساءة للأطفال، لكنه كان إنساناً عطوفاً شفوقاً ما كنت لأتصوره إلا في دور «الشرطي الطيب». عندما بدا عليّ عدم التصديق، قام الرجل بأداء مشهد سريع لما حكى عنه: فرأيت أنه يتقن دوره ويؤديه بصدق.

لا عيب مطلقاً في أن يؤدي الواحد منا دوره، ولكن عندما نكرر أداءه يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة: فإننا قد نتوحد معه. أذكر أنني سمعت محادثة بين بريطاني يحكي لصديقه عن آخر أخبار أولاده الثلاثة، إذ كنت أجلس بالقرب منهما في أحد المقاهي. قال الرجل: إن ابنه مايكل ما زال لطيفاً جداً، أما ولداه الآخران فقد اكتسبا عصبية لم يعهدها فيهما. ثم قال «أتعلم أنهما يعملان في المدينة؟!». بدا لي أن امتثال الولدين لسلوك موظفي قسم الاستثمارات البنكية، الذي ساعدهما على النجاح في العمل، بدأ يخلق المشكلات داخل البيت.

أحيـاناً يخـرج الدور عن حـدوده، بل يسـتولـي على الإنسـان، حـتى يصير مصدر هويته الرئيس. كانت إحدى صديقاتي تعمل وكيلةً لقطاع الموارد البـشرية في إحدى الشركات، وقد روت لي مـحادثة دارت بينها وبين أحـد زمـلائهـا من الوكـلاء. كـان الرجل يشـتكي بأسىً أنه بعـد أن استـغنت عنه شـركـته السـابقـة، لم تعـد توجـه إليه الدعـوات لحـضور مناسبات كـان يدعى إليهـا من قبل، وقـد كان يشـعر بالألم لذلك. قـالت له صديقتـي بصراحتها وبساطتها المعهـودة «وما المؤلم في ذلك؟ وإذ لم يكـن هؤلاء النـاس يدعـونك لشـخـصك، بل كـانـوا يوجـهـون الـدعـوة لمنصبك». كـان رأيها أن من الحمـاقة الخلط بين من نحن ـ أي جوهرنا الحقيقي ـ وما نشغله من مناصب وما نلعبه من أدوار.

وراء مـا نلعـبه مـن أدوار تكمن ذواتنـا الخـاصة ـ أفكارنا الشـخصيـة ومـشـاعـرنا ومـقـاصـدنا وقـراراتنا، ويمكن أن نسـمـي ذلك «مـديـرنا الشـخـصي». إذا كـان ذلـك الجـزء فينـا نـاضـجًـا بقـدر كـافٍ فـإننـا نتمـتع بقدر مماثل من التـحكم في الذات، ونستطيع اتخاذ القرارات المناسبة، كمـا نمتلك الانضبـاط الكافي لأن نرى نـتائج تلك القرارات. على سـبيل المثـال، ربمـا نحـضـر اجـتمـاعـاً يتـحـدث فـيه الجـميع، بمن فـيهم رئيسنا المباشر، بحماس بالغ عن أحدث كتاب أصدره أحد رموز العمل الكبار. فكيف نتصـرف إذا كنا نعـتقـد في قـرارة أنفسنـا أن الكتـاب «لا يرتدي شيئًـا»، فهل نسـأل أسئلة «غبيـة»؟ أو نقـول رأينا بصـراحـة، أو نتظاهـر، أو نلزم الصـمـت؟ ومـا عـواقب القـرار الذي سنتـخـذه؟ إن «المدير الشخصي» الكفء، ذلك الذي يعمل من وراء الستار، سيتخذ لنا أفضل

القـــرارات. فـــفـي حكايتنا، يمكن أن نرى كـــيف يعـــمل ذلك المدير الشـخـصي عندمـا أرسل الإمـبـراطور الوزير المؤتمن، وبعـده مـسـؤولاً كبيراً آخر ليتفقدا سير العمل في غزل القماش. عندما عجز الرجلان عن رؤية القماش، ارتفع صوت المدير الشخصي داخل كل منهما حتى سمعناه يتساءل عما إذا كان بهما غباء أو عدم كفاءة، فاتخذا قرار اللعب الآمن. وهكذا فـضـلا السـلامـة على الأمـانة، ولكن ذلك هبط بدور المستشار المؤتمن الذي يؤديانه إلى أدنى مستوى له. لهذه الحكاية مصداقية كبيرة لأن الكثير منا واجه مشكلات مماثلة: فبرر قراراته بأنها «عملية».

من الواضح أننا نحتاج لأن نراقب نزوع مديرنا الشخصي للمغالاة في «العملية». فأحياناً يأتي هذا النزوع في شكل استجابة لموقف طارئ، كما في الحكاية. وفي أوقات أخرى تكتسب صفة العملية بعداً استراتيجياً كما في حالة من يسعى إلى إعداد سيرة ذاتية عملية مبهرة تجعله سلعة مناسبة تقبلها الشركات. ولا ضير في ذلك ما دمنا لن نتخلى عن أحلامنا وأمنياتنا. فمن المحزن أن بعض الناس يضحون بالأشياء التي يحبونها مقابل أشياء أخرى بدت لهم ذات قيمة في وقتها وما يلبثون أن يكتشفوا أنهم أجروا صفقة خاسرة.

في ثمانينيات القرن العشرين، بدت المهن المرتبطة بالإدارة رهاناً آمناً حتى جاءت حركة تعديل الهيكلة «لتتخلص من الدهون الزائدة». وفي التسعينيات، كان مجال الحاسوب يعد بمستقبل ذهبي، ولم يمض وقت طويل حتى ذهبت أهم وظائف هذا المجال إلى أهل دول قارات

أخرى. إن من يضحي بما يحب من أجل مستقبل غير مؤكد: فهو على الأرجح يتخذ قراراً غير صائب. فهل نقضي وقتاً أقل في وضع الاستراتيجيات والمخططات لمستقبل لا يمكن التنبؤ به، وننفق المزيد من الوقت في تنمية إمكاناتنا واهتماماتنا الأثيرة؟ فإن ذلك وحده سيحقق لنا القبول لدى أصحاب الأعمال وسيمنحنا الرضا عما نعمل.

إيثار السلامة

«إنها رائعة! مبهرة! ممتازة!»

كلنا يقوم بأشياء كثيرة طلباً للتوافق، من التحلي بمزيد من الأدب حتى الالتزام بالمواعيد المحددة، ولا عيب في ذلك. تظهر المشكلة عندما يدفعنا الحرص على التوافق إلى تجاهل الحقائق، فنأتي بتصرفاتٍ تناقض قيمنا. عندها يكون الحرص على التوافق حماقة: فلماذا نرتكبها؟ غالباً ما يكون الخوف وإيثار السلامة هما السبب في ذلك. إننا نريد أن نبدو أذكياء وأن نتجنب «الحركات التي تقوض مستقبلنا المهني» وأن نحافظ على وظائفنا.

كثيراً ما تكون الحاجة المادية سبب هذا الخوف، فعندما تثقلنا الديون ويعز سوق العمل، نشعر بالضعف ونؤثر السلامة. نقبل آراء اللاعبين الكبار ونكبت آراءنا ـ نتبنى أجندتهم ـ فشخصيات حكايتنا لا يرون الملابس، لكن لأنهم يخشون الاستبعاد، يتجاهلون خبرتهم المباشرة، ويقولون ما يتوقعه الآخرون.

مواقف الضعف هذه نواجهها في أماكن العمل، فإن لم نوافق على أن الإستراتيجية الجديدة عبقرية، ربما اتهمنا بأننا «أغبياء» إلى درجة غير مسموح بها. وإذا لم نصفق للمنتجات الجديدة، أو نهلل لخطة بنية مؤسسية جديدة يمكن أن يقال عنا «غير أكفاء لمواقعنا». لذلك فإننا نسمعهم ما يعتبرونه صحيحاً حتى لو كنا نعتقد غير ذلك: إذ إننا نشعر بالخطر وعلينا أن نؤثر السلامة. فعندما يسعى المراهقون للتوافق، نقول إنهم يخضعون لضغط الأقران، ولكن عندما يفعل الكبار ذلك نقول إنهم عمليون.

إننا نسعى إلى المسايرة لأن رئيسنا في العمل ومن هو أعلى منه في الهرم الوظيفي يتصرفون وكأنهم يتحكمون في حياتنا المهنية، ونحن نقبل هذا الرأي، ونعتقد أننا سنحصل على المكافآت ما دمنا نلعب بقواعدهم. وطالما كتبنا على الخطوط التي رسموها سننجح. ولكن عندما يعجزون عن الوفاء بذلك نشعر أننا خدعنا؛ لذا فعلينا أن ندرك أن سلطتهم محدودة، وأن نتعلم أن نثق بقوتنا.

أما حرصنا على التكيف فمرده إلى أن المؤسسات اجتهدت في رسم صورتها في عقولنا فتصورنا أنها مستقرة ومتماسكة. مع ذلك، فكثيراً ما تحدث عمليات دخول شركة في أخرى أو شراء شركة لأخرى أو اندماج مؤسستين، واستجلاب العاملين من مؤسسات أخرى، كل هذه العمليات تجعل من الصعب التنبؤ بسلوك المؤسسة. وكما يتغير واضعو القواعد، تتعدل القواعد مثلما تتعدل لوحة حساب النتائج، ويظهر ذلك

في استبعاد المشروع الذي كان مفضلاً، وإقصاء أهم الفرق، وتقليص حجم القسم الذي نعمل به، وحتى عندما يحدث ذلك نبرر الأمر بأننا على الأقل لدينا تأمين صحي: لذلك لابد أن نفتح عيوننا؛ ففي الاقتصاد الكوكبي ستستمر المؤسسات في التغير. وينبغي أن نرى أنفسنا وكلاء أحراراً، ضماننا الوحيد هو موهبتنا وسجل إنجازاتنا.

وأما سعينا للتوافق فهدفه المحافظة على مستوى معيشتنا. فإننا نخشى تدهور مستقبلنا العملي وبالتالي مستوى معيشتنا، لو أننا عبّرنا عن رأينا الحقيقي. كلنا يشعر أنه مكبل بأقساط الرهن العقاري والسيارة ومصروفات التعليم والبطاقة الائتمانية: لذلك فإننا نتنازل عن حريتنا لندفع تكاليف مستوى معيشتنا.

تقول بام وولش، وهي مدربة قابلات، إن الديون تنزع الشجاعة من صدور الناس؛ لذلك، فقد جعلت المتدربات لديها ينشئن «صندوق الحرية». ويمكن تنفيذ ذلك بسبل بسيطة مثل: إعادة المشتريات غير الضرورية وإيداع ثمنها في حساب خاص. هذه الطريقة اتبعتها إحدى صديقاتي، وكانت مهووسة بالملابس الجديدة والإكسسوارات، فتكوّن لديها مبلغ لا بأس به في ثلاث سنوات فقط. ثمة إجراءات أشد يمكن أن تتخذ مثل الاستغناء عن السيارة الثالثة أو الانتقال إلى منزل أصغر.

عندما نواجه مخاوفنا ونتعامل معها، فإننا سنتمكن من مقاومة ضغط الأقران، ونصير عمليين.

مقاومة تضخم الذات

«كان للإمبراطور حلة في كل ساعة من ساعات اليوم...»

أحياناً يكون الحرص على التوافق حماقةً، هذا أهم ما تقوله قصة ملابس الإمبراطور الجديدة. فكثيراً ما يكون الغرور ــ أو الأنا ــ هو المسؤول عن تصرفاتنا الحمقاء. فعندما تتضخم ذواتنا، لا نقبل رأي أحد ونتجاهل الحقائق، أو نقع في غرام أفكارنا فلا نستمع إلى أحد، فربما دفعتنا الأنا ــ أو الغرور ــ إلى تصديق كلام لا يخفى كذبه، وإلى تكذيب عقولنا.

الإمبراطور في حكايتنا هو الغرور مجسّداً: أخذه ولعه بالملابس الجديدة حتى أنفق كل ماله ليبدو في أبهى مظهر. وهذه إشارة واضحة إلى أن حجم الذات خرج عن السيطرة. صحيح أن الاستمتاع بالأشياء الراقية أمر مرغوب، لكن إنفاق كل المال عليه بلا شك حماقة.

أما القادة الكبار فيعرفون كيف يسيطرون على حجم ذواتهم، وكيف يتجنبون الحماقة. فهم يختارون عدداً محدوداً من المستشارين الأمناء، ويشجعون النقد وينصتون. كذلك فعل هـ. ك. أندرسون: إذ كان أصدقاؤه المقربون قلة، لكنهم كانوا يعبّرون عن آرائهم في كتاباته بكل صراحة، ولولاهم لشابت تلك الأعمال الركاكة والعاطفية السطحية (وكان بعضها كذلك) بدلاً من العمق والرصانة.

يحتاج كل واحد منا إلى من يصارحه، صديق أو قريب أو زميل أو أستاذ. ولسنا مجبرين على الأخذ بنصائحهم، المهم أن ننصت إليهم، ولاسيما إذا توافقت آراؤهم. دعاني الجانب الإسباني من عائلتي،

مؤخراً، لقضاء أيام معهم في قريتهم الجبلية، وصادف ذلك أحد احتفالات القرية: فدعوني إلى ليلة من الرقص والشرب، فاعتذرت لزوج أختي وقلت له: «أنا مشغولة جداً بالكتاب في الوقت الحالي»، فكانت إجابته العرضية: «أنت دائماً مشغولة». لسبب ما أزعجني تعليقه... صحيح أن أقاربي الإسبانين والدنماركيين ذكروا قبل ذلك أنني بالتدريج أصبح أمريكية أكثر من اللازم في المزاج والتوجه، وأن عليّ أن أخصص وقتاً أكبر للاسترخاء واللهو، و سمعت تعليقات مشابهة قبل ذلك وكنت أتجاهلها، لكن هذا التعليق أثر فيّ. فأنا أحب عملي، ولكن هل بدأ هذا الحب يتحول إلى هوس؟ وهل أنا أنتقل بغير وعي من مشروع مثير إلى آخر دون فاصل؟ هل تجسد غروري في العمل؟ مازلت أمعن التفكير في هذه الأسئلة: ما نواحي الغرور فيك؟ وما الأشياء التي تجعلك تشعر بالجاذبية والذكاء والأهمية؟ هل كونك عضوًا في أهم الفرق، أو أنك مستشار لإحدى الشخصيات المهمة، أو لأنك تجني مالاً وفيراً، أو لأنك تبدو شاباً؟ لو كان الأمر كذلك فما ثمراته؟ هل تمنحك هذه اللعبة الحياة أم تقتلك بالتدريج؟ إن طرح هذه الأسئلة من شأنه أن يزيد وعينا بالذات وهو خير دفاع لنا ضد مثل هذه الحماقة.

حماقتي

كنت في أوائل ثمانينيات القرن العشرين آتي تصرفات حمقاء كتصرفات شخصيات حكايتنا: فبسبب الخوف والأنا كنت أتجاهل عقلي وأساير الرؤساء. ففي ذلك الوقت لم تكن النساء تشغل مناصب

الإدارة أو المناصب التنفيذية، لقلة الثقة في عقلانيتها أو لقلة اعتدادها بنفسها، لم نكن «مطابقات للمواصفات». ولقد نجحت في أن أشغل منصب أول مديرة في شركة صناعية متعددة الجنسيات. كان ذلك نتيجة أني عملت بجهد كبير وتمثلت صورة الشخص القوي، وكنت أضحك على النكات التي بها تمييز جنسي. وجاءت مكافأتي سريعاً بتعييني في منصب مرموق وهو مديرة لأحد خطوط الإنتاج.

وذات يوم، طلب مني رئيسي ورئيس رئيسي أن أنفذ خطة كان رأيي أنها تضلل العملاء. وبسذاجة طرحت موضوع الأخلاقيات وأدركت خطئي في لحظتها: تبادل الرجلان نظرة تقول: «كنت أعرف أننا ما كان ينبغي أن نعيّن فتاة»، ثم صرّحا بأنهما سيبحثان عن رجل لهذه الوظيفة إن كنت أنا عاجزة عن تولي مسؤولياتي. وكأني سمعت صوت المكابح وهي توقف فجأة انطلاقة مستقبلي العملي، فأكدت لهما أنني سأعالج الأمر فوراً.

بررتُ انحسار شجاعتي بما عليّ من ضغوط أقساط الرهن العقاري الكبيرة على بيتي الذي يقع على تل. ففي تذكر المسؤوليات المالية رد حاسم. وقلت لنفسي إنني انتقلت حديثاً من القطاع العام إلى لعبة تحقيق الأرباح في الأعمال التجارية، وإنني آتية من قسم العلاج الطبيعي وكل من فيه من النساء، وإذا أردت أن أنضم إلى الأولاد فلابد أن ألعب بقواعدهم. كان قراري منطقياً جداً، ولو أني لم أكن مستريحة. ففي أعماقي كنت أشعر بخيبة أمل فيما يجري للمرأة التي بداخلي.

لكنني مع الوقت بدأت أتواصل مع ذاتي الأصيلة وأقويها، وتساءلت لماذا أصر على اتباع هذا الأسلوب المكلف في الحياة؟ وهل يمنحني ذلك الحياة الحقة أم يقتلني بالتدريج؟ وهل خرجت الأنا عندي عن حدود السيطرة؟ وتساءلت بأمانة ألست أنتشي فخراً من كوني الفتاة الذهبية المنطلقة؟ ألا يسعدني أن تحتل صورتي صفحة كاملة في التقرير السنوي؟ وميزانيتي الكبيرة، ومنصبي باهر المستقبل؟

وعندما فتحت عيني أخيراً، أدركت أن ديوني سلبتني شجاعتي. فقمت أنا وزوجي بترشيد نفقاتنا، حتى استطعنا أن نعيش بدخل واحد من دخلينا. أتاح لنا ذلك حرية التعبير عن حقيقة آرائنا (ولكن بحساب) فاتخذنا قرارات غير تقليدية بشأن حياتنا المهنية. إن ما فعلناه هو أننا تنازلنا عن مستوى معيشتنا الأعلى مقابل حياة أجود.

مواجهة الحقائق

قال صبي صغير: «لكنه لا يرتدي شيئاً» ... وأخيراً صاح الجميع «لكنه لا يرتدي شيئاً»

كانت المخطوطة الأولى لقصة «ملابس الإمبراطور الجديدة» التي أرسلها هـ. ك. أندرسون لا تكشف الخديعة في نهاية القصة. فكان الإمبراطور يقول في الخاتمة الأصلية «لابد أن أرتدي هذه الملابس كلما خرجت في موكب أو ظهرت أمام جمهور، وكانت المدينة كلها تتحدث عن ملابسه الجديدة الرائعة».

تحـافظ تلك الخـاتمة على الذات مـتـضـخـمـة وعلى دور كل شخصية، وتسمح للناس جميعاً بقضاء وقت ممتع. ولكنهم جميعاً وقعوا ضحية الاستغلال والغش والتشكيك في قواهم العقلية. ولكن لحسن الحظ، غيّر هـ. ك. أندرسون هذه النهاية بأن أضاف تعليق الصبي الصريح «لكنه لا يرتدي شيئًا». قللت هذه الجملة من تهكم النهاية وزادت من غموضها.

فهل يتجاهل الإمبراطور الحقيقة عندما يواجهها، أم يقبلها؟ كان رأيي أنه سيظل ينكرها، لأن النص يقول «ارتجف الإمبراطور، فقد بدا له أنهم على حق». جعلتني كلمة «بدا» أعتقد أنه لم يواجه الحقائق. فإذا كان حقاً قد اعترف بعملية النصب: فلماذا لم يبدأ في مطاردة النصابين؟ (انظر جزء «هل كنت تعلم؟»). ولكن هل يمكن تأويل الخاتمة على نحو إيجابي؟

ترى إحدى صديقاتي، وهي محررة كتب أطفال ذات خبرة عريضة، وواحدة من أشد المعجبات بكتابات هـ. ك. أندرسون، أن النهاية تبعث على الأمل. فهي تعتقد أن الإمبراطور يبدأ في مواجهة مسؤوليته في أشد لحظات حياته هواناً، فهوية الرجل أساسها المظهر الرائع وهو الآن مجرد من كل رداء أو زينة، وقد انكشفت حماقته أمام الناس كافة، لكنه لا ينهار: بل يرفع رأسه ويشد كتفيه ويكمل موكبه. ففي رأيها أنه كان في السابق إمبراطوراً بملابسه، وهذه أول مرة يملك شجاعة أن يتصرف كما ينبغي أن يتصرف إمبراطور حقيقي.

يتفق تأويل صديقتي مع ما نعرفه عن السلوك الإدماني. فغالباً ما ينتهي مدمن الكحول إلى حالة من الهوان الكامل تجبره أن يفتح عينيه. و عندما يواجه الحقائق، يستطيع الانضمام إلى اجتماع للمدمنين (لا يشترط فيه التصريح بالاسم)، ويعلن عن اسمه طواعية، فيقول أنا فلان (اسمه الأول) وأنا مدمن كحول. وبعد هذا التعري يصير مهيأ للقيام برحلة شاقة نحو الشفاء.

إن مواجهة الحقائق ضرورية للأفراد وكذلك للفرق عالية الأداء. فالعاملون البالغون، الذين لديهم القدرة على قول الحقيقة ووصف الأشياء كما هي، يمثلون رصيداً غالياً لفرقهم شريطة تجنب الاتهامات، وأن يكون الفريق كله راغباً في الإنجاز.

أما قول الصبي «ولكنه لا يرتدي شيئًا» فهو مثال للحديث الصريح، ولقد صدقه الناس فوراً لأنه واضح المعنى، أما لو أطلق الصبي رأياً مثل «الإمبراطور أحمق» فما كان الناس ليوافقوه، وربما ردوا بالقول «لا، بل هو ساذج» أو «لا، بل ينبغي للإمبراطور أن يحسن انتقاء مستشاريه».

ولسوء الحظ، لا تتحرى فرق العمل الوصف الحقيقي دائماً، بل تنزع إلى اجترار ضغائن قديمة، وكشف عيوب الآخرين، بالرغم من أن هذا السلوك المتذمر لا يفيد أحداً. ففي خبراتي مع فرق قيادية كثيرة، وجدت أننا نبذل قصارى جهدنا عندما يتملكنا فضول حقيقي بشأن المشكلة التي نحن بصددها (مثل أن تواتينا فرصة عظيمة لسنا مستعدين لها) وعندما نتسم بالصراحة والشفافية فيما يخص سبب

المشكلة، وعندما نعلو على حماقاتنا ونسخر منها*. حينئذٍ تبدأ رحلة بناء فريق قوي. إن تبديد الأوهام عن الذات والفريق أو الشركة أمر صعب، لكنه ضروري لبلوغ الرشد.

لا شك أن من أهم دروس هذه الحكاية هو ضـــرورة أن ينظر كل واحد في أجندته ليعلم هل هو المتحكم فيها أم غيره. فالحرص على التوافق يجعلنا نعيش حياتنا طبقاً لأجندة أناس آخرين. وربما يكون لذلك ميزات على المدى القصير، لكن مخاطره جسيمة على المدى البعيد. إن المغالاة في صفة العملية والهوس بحساب التفاصيل في حياتنا المهنية قد يعني أننا نفصل حياتنا لتناسب توقعات أناس آخرين. فإننا نختار المهنة التي يقترحها آخرون، ونتعلم المهارات التي يشترطونها، ونستجيب لمراجعات الأداء التي يجرونها سنوياً أو نحوه. فنحن نستمع إلى ما يقوله رئيسنا ورئيس قسم الموارد البشرية وغيرهما من اللاعبين الكبار. فإذا تعرضت وظائفنا إلى عمليات تقليص أو استغناء أو استبعاد أو نقل، نشعر بالخيانة.

الأفضل من ذلك كله أن نستعيد أجندتنا الشخصية، أن نختار العمل الذي نعشقه، العمل الذي نجيده أكثر من غيرنا: فنتيجة ذلك أن المرء يشعر أنه مسؤول بالفعل لا بالوكالة. والأهم من ذلك كله، أننا نرتقي إلى مستوى عالمي، ونجني من ذلك متعة كبيرة.

---

*يمكنك الحصول على نسخة مجانية من كتاب «أساسيات القيادة الذاتية» إذا دخلت على موقع www.mettenorgaard.com

عندما يعتمد تقديرنا لذاتنا على موافقة الآخرين، وعلى الحوافز أو الترقيات التي يمنحونها أو يمنعونها، يكون الأمر بأيديهم لا بأيدينا. ويمكننا أن نسترد أجندتنا باستخدام «وسيلتين لكشف الحماقة» رائعتين - وعينا بالذات الذي يوجهنا من الداخل، والحوارات الصريحة لتحفزنا من الخارج. ولا يمكن تشغيل هاتين الوسيلتين إلا بعد طرح سؤال «أجندة من التي أتبعها؟» فإذا كنا نتبع أجندة غيرنا: فإنه ينبغي أن نتوقف وندرس الموقف. فإذا استطعنا أن نوازن بين شخصيتنا العملية واهتماماتنا الحقيقية، وننظر بأمانة إلى مخاوفنا وذاتنا: فإننا سنتمكن من مقاومة التحكم الخارجي.

تساعدنا حكاية «ملابس الإمبراطور الجديدة» على أن نضحك على لحظات الحياة الصعبة وعلى حماقتنا، أما مغزى هـ. ك. أندرسون منها فليس إدانتنا، بل دعوتنا لأن نكون صادقين. لا يقصد الرجل أن يرسم لنا صورة سلبية، بل يريدنا أن نكون أكثر وعياً، يدعونا لأن نستمتع دون أن نرتكب الحماقة.

نقاط تستحق التفكير

ـ هل ترى نفسك مشدوداً إلى طاحونة السعي وراء مستويات المعيشة الأعلى؟

ـ فإن كان ذلك صحيحاً، هل يمنحك هذا السعي الحياة أم هو قاتلك؟

متى تقول رأيك بصراحة؟ ومتى تقول المتوقع أو تلزم الصمت؟

موضوعات تستحق أن تناقشها مع زملائك

ما الأشياء التي لا يمكن أن تناقش في العمل؟

ـ من مِن أعضاء فريقك قادر على إثارة القضايا الشائكة؟ وكيف يفعلون ذلك؟





حكاية

البط الدميم

عندما ننصت إلى صوت الشغف بداخلنا

فإننا نصل لطبيعة البجع في كل منا



«كان في الريف المشهد رائعًا: حل الصيف، بسنابل القمح المشوقة الصفراء، والشوفان الأخضر، وحزم النجيل المرصوصة في المرج الأخضر». هكذا تبدأ قصة البط الدميم في جو ريفي رائع، وكذلك تنتهي في جنة جبلية خضراء بديعة. ولكن بين المشهدين الخلابين حكاية إقصاء ومجالدة، وشغف وتعلم حتى إدراك صورة ذاتنا الحقيقة.

رحلة البطل هي موضوع حكايتنا الحاضر في كل ثقافة وكل عصر. يعيش البط الدميم طفولة بائسة، يتملكه الإحباط في كل مراحل القصة، مما يثير دهشة عظيمة عندما تكشف المواقف ما لديه من همة وعزم. في أول الأمر نسمع صوت غريزة البقاء عنده ترفض سوء المعاملة. ثم نرى هويته الأصيلة تؤكد نفسها وترفض «الامتثال». وأخيراً تعبّر طبيعة البجع داخله عن نفسها عندما يقول «نعم» لإمكاناته الشخصية.

وبينما تقرأ الملخص التالي، أو القصة الكاملة إن شئت، أدعوك للتفكير في الأسئلة التالية: بماذا توحي لك القصة؟ ما الذي يحبطك فيها؟ ما الشيء الذي تتوق إليه؟

ملخص الحكاية

ذات يوم من أيام الصيف وبالقرب من خندق مائي يحيط بقصر أحد الحكام. كانت البطة الأم تراقب بيضها وهو يفقس واحدة بعد الأخرى إلا واحدة كانت كبيرة على نحو غير معتاد في بيض البط. أكدت بطة عجوز أنها بيضة دجاجة رومية وحذرت الأم من أن الفراخ الرومية تخاف الماء. وعندما فقست البيضة، خرج منها صوصٌ كبير دميم يتعثر. خشيت الأم أن يكون صوصاً رومياً حقاً فقالت في نفسها «لابد أن أصطحبه إلى الماء حتى لو اضطررت لدفعه فيه».

قادت الأم فراخها إلى الماء، وفي الحال قفزت الواحدة بعد الأخرى وطفت جميعًا على سطحه ببراعة ومن بينهم الصوص الدميم. فقالت الأم في نفسها: «أبداً، ليس هذا بصوص رومي، بل هو ابني».

وعندما تجمعوا في ساحة البط أخذت الفراخ جميعاً تضايق الصوص الدميم لأنه كان مختلفاً جداً عنها. كان البط الكبير يعضه والدجاج ينقره، حتى الفتاة التي كانت تطعمهم كانت تركله. وكان إخوته وأخواته يقولون إنهم يتمنون لو خطفته الهرة، حتى إن الأم نفسها تمنت أن يرحل هذا الصوص الدميم. فتملكه اليأس وطار فوق السور وفر إلى المستنقع.

وفي تلك البرية قابل الصوص بعض الإوز البري الودود. ولكن سرعان ما بدأ الصيد، أصاب الرصاص الإوز، وصارت البحيرة حمراء من لون الدماء، وجاء كلب مخيف أثار ماء المستنقع ليمسك لصاحبه بالإوز الميت، فتملك الصوص رعب لا حد له.

وفي الليل هرب من المستنقع حتى أتى مزرعة رقيقة الحال تعيش فيها امرأة عجوز ومعها هر ودجاجة. كان الهر سيد البيت والدجاجة سيدته. وكان لكل منهما رأيه في كل شيء. ظن أن من حقه أن يرى خلاف ما يرون، لكنهما رفضا ذلك رفضًا قاطعًا. كان الصوص آمنًا في الركن الذي يؤويه، لكنه كان يتوق إلى الخروج وإلى الماء، فأفضى للدجاجة بسره. لكنها أكدت أن الكسل هو مصدر هذه الأفكار السخيفة، ونصحته بأن يجد ما يشغله. إلا أن شغفه استمر وازداد، وكان رأي الدجاجة أن الصوص أصبح لا يطاق. وسألته إن كان يظن أن الهر أو الدجاجة أو المرأة العجوز يحبون أن يخوضوا في الماء، وقالت له إن فكرته ليس بها أي مسحة عقل. صاح الفرخ: «لكنك لا تفهمينني!» ثم انطلق إلى العالم الرحب.

كان الصوص بطبيعته يحب السباحة والغطس في الماء، لكن المخلوقات الأخرى استمرت في إقصائه. وفي إحدى أمسيات الخريف، شاهد الصوص سربًا من الطيور البيضاء الجميلة ذات أعناق طويلة رشيقة: طيور البجع. نشرت تلك الطيور الرائعة أجنحتها وطارت نحو مناطق أكثر دفئاً. شعر الصوص بارتباط غريب بها، وعلى رغم من أنها اختفت سريعًا عن نظره، إلاّ أنه لم ينس قط تلك المخلوقات المذهلة.

حل الشتاء، وكان الصوص المسكين مضطرًا للسباحة في أنحاء متفرقة حتى لا يتجمد سطح الماء كله. لكنه في النهاية أصابه التعب وعلق في الثلج. ولحسن حظه رآه مزارع وأنقذه.

وأخيراً أقبل الربيع، واختبر الصوص جناحيه فأحدثا دويًا وهما يحملانه إلى حديقة جميلة. وعندما هبط على الماء رأى الطيور الجميلة مرة أخرى، لكنها كانت قادمة نحوه هذه المرة وريشها منفوش، فخاف أن يركلوه ركلة فيها موته بسبب شكله الدميم. استسلم الصوص لقدره، وانحنى برأسه نحو سطح الماء الساكن، وفجأة رأى انعكاس صورته ـ كان هو نفسه ذكر بجع.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... في نوفمبر 1843 نشر هـ. ك. أندرسون مجموعة من الحكايات ضمت «البط الدميم» و «العندليب»، وللمرة الأولى حذف المؤلف عبارة «قصص للأطفال» من صفحة العنوان، فقد أدرك حينها أنه يكتب للأطفال والكبار معًا: فأحداث الحكاية تمتع الأطفال وما وراءها من أفكار موجهة لعقول الكبار. وبصدور تلك المجموعة وصل هـ. ك. أندرسون أخيرًا إلى النجاح الأدبي والتجاري.

قصة البط الدميم هي الأقرب لحياة الرجل من بين أعماله. و يرى المتخصصون علاقة وثيقة بين كل من مزاجه ومشاعره في هذه الحكاية وخطاباته الشخصية ويومياته. من ذلك دراسة هـ. توبسو جونسون التي تجد ملامح كثيرة مشتركة بين القصة وتلك المنشورات؛ فالكاتب كان حاله من حال البط «فقيرًا، عالة على المحسنين الذين لم يفهمه منهم أحد، معذبًا ومهانًا يعاني مشاعر الدونية، وهو يتحمل أوقاتاً صعبة طويلة، يزيد من صعوبتها ارتيابه في قيمته الشخصية. ولكن الرجل في أعماقه كان مؤمناً بأن ساعة الحصاد قادمة».

كبطل هذه الحكاية، كان هـ. ك. أندرسون ينزع إلى الشفقة على الذات وتضخيم الألم الشخصي. ولكنه كان أيضاً شجاعاً شجاعة مبهرة. ويمكن تفسير هذا النزوع بأن طفولة أندرسون

كانت أبعد ما تكون عن الرومانسية؛ إذ كانت أسرته معدمة ولا تتمتع بالاحترام. لم يكن والداه متزوجين قبل ميلاده، ودخلت جدته السجن لأنها أنجبت عدداً كبيراً من الأطفال غير الشرعيين، وكان جده نزيل مستشفى الأمراض العقلية، وأخته غير الشقيقة غير الشرعية تعمل في بيت دعارة. وكان أندرسون نفسه صبيًا دميمًا مخنث المظهر أو السلوك، كانت قدماه كبيرتين جداً وساقاه طويلتين جداً وعيناه ضيقتين جداً. ولكن موهبة هـ. ك. أندرسون أوصلته إلى كوبنهاغن، وأكسبته الرعاية الملكية، حتى صار واحداً من أقرب الأدباء في العالم إلى قلوب القراء.

الحكاية الكلاسيكية

كان المشهد رائعًا في الريف. حل الصيف بسنابل القمح المشوقة الصفراء، والشوفان الأخضر، وحزم البرسيم المرصوصة في المرج الأخضر. وطائر اللقلق يمشي على ساقيه الطويلتين، يغمغم باللغة المصرية، إذ كانت هي اللغة التي تعلمها من أمه. كانت الحقول والمروج محاطة بغابات فسيحة، وفي وسط الغابات كانت هناك بحيرات عميقة. نعم، كان كل شيء رائعاً هناك في الريف.

كانت الشمس تغمر قصرًا قديمًا حوله خندق مائي عميق. وقد نمت نباتات ذات أوراق كبيرة من أعلى السور حتى سطح الماء. وكانت تلك النباتات طويلة بقدر يسمح لطفل صغير أن يقف تحت أكبرها منتصبًا. كان النبات كثيفًا في هذا المكان كأشد ما يكون في الغابة. وهنا كانت ترقد بطة على بيضها في انتظار أن يفقس، لكنها بدأت تمل من طول المدة وقلة الصحبة: فالبطات الأخريات كن يفضلن السباحة في الخندق المائي على الذهاب إليها والجلوس للدردشة معها تحت النباتات.

وأخيراً أخذ البيض يفقس واحدة تلو الأخرى، «تك، تك»، دبت الحياة في صفار البيض كله وخرج رأس صغير من كل قشرة.

صاحت البطة «كواك، كواك» وانطلقت الأفراخ بأسرع ما تستطيع، تنظر جميعًا حولها تحت الأوراق الخضراء. وتركتهم أمهم ينظرون كما

يحلو لهم: لأن اللون الأخضر مفيد للعيون. قالت الفراخ جميعًا: «يا الله! يا له من عالم كبير!» فقد كان المكان أوسع كثيرًا من قلب البيضة الذي كانوا يرقدون فيه.

قالت البطة الأم: «أتظنون أن هذا هو العالم كله؟! لا، لأنه يمتد بعيدًا وراء هذه الحديقة وحتى حقل القسيس، بالرغم من أنني لم أذهب إلى هناك قط». والآن أظن أنكم جميعًا موجودون. ثم وقفت قائلة: «لا. ما زال العدد ناقصًا. البيضة الكبيرة لا تزال هنا تحتي. فكم سنحتاج من الوقت»؟ لقد بدأت أملّ منها. قالت ذلك ثم عادت للرقاد على البيضة.

جاءت بطة عجوز لزيارتها وسألتها : «كيف تسير الأمور؟» قالت البطة الراقدة: «هذه البيضة تحتاج وقتًا طويلاً، ولكن تفضلي لتشاهدي الأفراخ. فهن أجمل ما رأيت من فِراخ، كلهم يشبهون أباهم، ذلك النذل الذي لا يأتي ليطمئن عليّ».

قالت البطة العجوز: «اسمحي لي أن أرى البيضة التي لم تفقس، فما أظن إلا أنها بيضة دجاجة رومية، وقد انخدعت في واحدة منها قبلك، وحزنت كثيرًا بسببها: لأن الفراخ الرومية تخشى الماء، وعجزت أن أنزلها الماء وصرخت حتى بح صوتي بلا طائل. دعيني أر تلك البيضة! أجل، إنها بيضة دجاجة رومية! اتركيها وعلمي صغارك الآخرين السباحة».

قالت البطة الأم: «بل سأرقد عليها مدة أطول. فلقد رقدت عليها طويلاً، ولا مانع من أن أرقد عليها حتى تفقس».

قالت البطة العجوز: «كما تحبين». ثم رحلت.

وأخيراً فقست البيضة الكبيرة وقال الصغير: «بيب، بيب» وهو يخرج من البيضة متعثرًا. كان كبيرًا وبشعًا، نظرت الأم إليه وقالت: «هذا الصوص الكبير إلى درجة مفزعة، ولا يشبه أياً من الفراخ الأخرى، ولا يمكن أن يكون فرخاً روميًا، لا يمكن. لكنني سأتحقق من ذلك سريعًا، سآخذه إلى الماء حتى لو اضطررت لدفعه إليه دفعًا».

كان الطقس في اليوم التالي رائعًا، والشمس تسطع على النباتات الخضراء، فاصطحبت البطة الأم أسرتها كلها ونزلت إلى الخندق المائي، ثم قفزت إلى الماء فتناثرت حولها قطراته. ونادت البطة: «كواك...كواك» فانزلقت فراخ البط واحدًا تلو الآخر، وعلا الماء رؤوسها ثم ظهروا سريعًا وطفوا جميعًا ببراعة. كانت أرجلهن تعمل تلقائيًا. ولم يمض وقت حتى كانوا جميعًا على سطح الماء، وكان الصوص الرمادي الدميم يسبح معهم.

قالت الأم: «أبداً. ليس هذا بصوص رومي»؛ فهو يستخدم رجليه ببراعة، ويتحرك برشاقة بالرغم من طوله. لا شك أنه ابني. والحق أنه وسيم عندما تمعن النظر فيه. كواك..كواك. والآن هيا معي، سآخذكم إلى العالم الحقيقي وأقدمكم إلى ساحة البط. ولكن لا تبتعدوا عني حتى لا يدوسكم أحد، واحذروا الهرة.

ثم وصلوا إلى ساحة البط. وكان المكان يعج بالفوضى؛ إذ كانت أسرتان تتعاركان على رأس ثعبان بحر، صار في النهاية من نصيب الهرة.

قالت البطة وهي تلعق منقارها رغبة في رأس ثعبان البحر: «انظروا! هكذا الدنيا». والآن استخدموا أرجلكم وأسرعوا إلى البطة الكبيرة وانحنوا لها: فهي أهم من في الساحة. وإن فيها عرقاً إسبانياً، وهذا ما يجعلها سمينة جداً، ولاحظوا الخرقة الحمراء حول رجلها، فهذا شيء مميز للغاية؛ بل هي أعلى ما يمكن أن يحصل عليه أحد، وهو يعني الحرص على وجودها، وأنها تلقى احترام الحيوانات والبشر. والآن أسرعوا، ولا تضموا أرجلكم، فالبط المهذب يبعد رجليه الواحدة عن الأخرى، كما يفعل أبوه وأمه، هذا كل شيء. والآن، انحنوا وقولوا «كواك!»

فعل الجميع ذلك، لكن بقية البط حولهم قالوا بصوت عالٍ: «انظروا! ها هي مجموعة أخرى قد جاءت! وكأننا قلة نحتاج للمزيد من البط». ثم «إخ إخ على شكل هذا الفرخ. لا يمكن أن نقبله». وفي الحال طارت بطة وعضته في رقبته.

قالت الأم: «اتركيه وشأنه! فهو لم يضايق أحداً». فردت البطة التي عضته: «نعم، لكنه أضخم من المعتاد وشكله غريب؛ لذا ينبغي أن يُضرب».

قالت البطة العجوز، ذات الخرقة حول رجلها: «فراخ هذه الأم جميلة كلها إلا واحداً، هذا الصوص ليس جميلاً، أتمنى أن تغيره».

قالت البطة الأم: «هذا مستحيل يا سمو البطة الكبيرة، صحيح أنه ليس وسيماً، لكنه لطيف الطباع وبارع في السباحة مثل الآخرين، إن لم يكن أشدهم براعة! وأظن أنه سيكون وسيماً عندما يكبر، أو أنه

سيصبح أقل حجماً مع الزمن، فلقد مكث فترة أطول في البيضة، لذا فشكله هذا ليس الشكل الصحيح». ثم مسحت على رقبته وسوت ريشه، وقالت: «ثم إنه مجرد ذكر لا يهم جماله كثيرًا. وأظن أنه سيصير قويًا جداً، سيفعل، لا شك في ذلك».

قالت البطة العجوز: «الفراخ الأخرى جميلة. مرحباً بك بيننا، وإذا وجدت رأس ثعبان يجري فلا مانع من أن تحضريه لي».

واستقرت عائلة البطة في ساحة البط.

لكن الصوص المسكين الذي خرج آخرًا من البيضة، وكان دميمًا جدًا، كان يتعرض للعض والدفع والسخرية من البط والدجاج جميعًا. كانوا يقولون عنه إنه «أكبر من المعتاد». وحتى الديك الرومي، الذي ولد بأشواك في رجله، مما جعله يظن أنه إمبراطور، وكان ينفخ نفسه مثل سفينة منشور شراعها، ذهب إلى الصوص ورفع صوته بالكركرة وحمّر وجهه، فلم يدرِ الصوص المسكين أيبقى أم يجري. كان تعيسًا لأنه يشعر بالدمامة، وكان موضع سخرية كل من في ساحة البط.

هكذا صارت أحداث اليوم الأول، وبعده ازداد الأمر سوءًا. صارت كل الحيوانات تطارد الصوص المسكين، حتى إخوته وأخواته، كانوا يسيئون إليه، وكانوا يقولون له دائمًا: «يا ليت الهرة تخطفك أيها الوحش الدميم». وكانت أمه تقول: «ليتك ترحل بعيدًا». كان البط يعضه، والدجاج ينقره، والفتاة التي تطعم الحيوانات تركله.

وفي النهاية، جرى الصوص وطار من فوق السور، وفزعت الطيور الصغيرة القاطنة في أعشاشها وطارت بعيدًا. فقال الصوص في نفسه: «هذا لأني بشع المنظر». ثم أغلق عينيه، لكنه واصل الجري، حتى بلغ المستنقع الكبير الذي يسكنه البط البري. ورقد هناك طوال الليل: فقد كان منهكًا ويشعر بحزن بالغ.

وفي الصباح طار فوق المستنقع بعض البط البري، فرمقوا القادم الجديد وسألوه: «أي المخلوقات أنت؟!» استدار الصوص على كل جانب وحياهم بأحسن ما يستطيع. قال البط البري: «أنت دميم جدًا! لكن ذلك لا يهمنا مادمت لن تتزوج من أسرتنا». لم يكن هذا الصوص المسكين يفكر في الزواج، فهو بالكاد تجرأ على النوم وسط أعواد القصب، وشرب القليل من ماء المستنقع.

مكث الفرخ يومين كاملين في هذا المكان. ثم أتت إوزتان بريتان ـ أو بالأحرى إوزان ـ إذ كانا ذكرين. ولم يكن قد مضى وقت طويل على خروجهما من البيض، فكانا مفعمين بالحيوية.

قالا له: «اسمع يا صديق! أنت بشع لدرجة جعلتنا نحبك. هل تود أن تأتي معنا وتصير طيرًا مهاجرًا؟ فبالقرب من هنا مستنقع آخر به بعض إناث الإوز اللطيفات الجميلات وكلهن عذارى يقلن «كواك»، وربما حالفك الحظ معهن، بالرغم من بشاعتك».

في تلك اللحظة سُمعت أصوات فرقعة «بانج، بانج» فوقهم تمامًا، فسقط ذكرا الإوز صريعين بين أعواد القصب، وصار الماء أكثر احمراراً من لون الدم. وانطلق الصوت مرة أخرى «بانج، بانج» فطار

الإوز البـري كله مـن بين الأعـواد ثم زادت الطلقـات: فـقـد كـانت رحلة صيد كبيرة. كان الصيادون يرقدون في أماكن مختلفة من المستنقع. بل إن بعـضهم كـان يربض فـوق فـروع الأشـجـار التي تعلو أعـواد القـصب جميـعًا. كـان الدخان الأزرق يمر كـالسـحـاب بين الأشجار الداكنة حتى تجـمّع فـوق الماء. جـاءت كـلاب الصيـد وسط الوحل تثـيـر الماء، وتدفع أعـواد القـصب للأمـام وللخلف. وكـان ذلك مـفـزعًـا للصـوص الصـغـيـر الذي أخـفـى رأسـه تحت جناحـه، وفـي تلك اللحظة ظهـر أمـامـه كلب ضخم بدرجـة مخيفـة، كان لسانه يتدلى من فمه وعيناه تلمعـان بصورة تثير الرعب، ثم تناثر الماء وجرى الكلب دون أن يأخذ الفرخ.

تنهـد الصـوص وقـال : «يا إلهي! أنا مـقـزز جـدًا لدرجـة أن الكلب نفسـه يعاف أن يعضني». ثم رقـد بلا حـراك بينمـا الطلقـات تدوي بين أعواد القصب، وهي تنطلق واحدة تلو الأخرى.

لم يهـدأ الجـو حـتى آخـر النهـار، ولم يجـرؤ الصـوص المسكين على النهوض، فـانتظر سـاعـات عديدة بعدهـا قبل أن يتلفت حـوله، ثم اندفع خـارجًا من المستنقع بأسـرع ما يستطيع عـابرًا الحقول والمروج، وكـانت الرياح شـديدة تعوق حـركته.

وقبل حلول المسـاء وصل إلى بيت ريفي صـغـيـر فقيـر. كـانت حـالة البيت رثة لدرجـة أن البيت نفسـه لم يعـرف علـى أي جـانب سـيـسـقط فظل واقـفـاً مكانه. وكـانت الرياح تهب بقـوة حـول الصـوص حـتى إنه اضطر للجلوس على مؤخرته كي لا ينقلب، وأخذت شـدة الريح تتزايد،

فساء الأمر. ثم لاحظ الصوص أن إحدى مفصلات باب البيت قد انخلعت فصار الباب معلقًا على نحو مائل بحيث يستطيع أن يدخل إلى غرفة المعيشة من خلال الفتحة، ففعل.

كان يسكن البيت امرأة عجوز وهرها ودجاجتها. كان الهر، الذي سمته سوني يستطيع أن يقوّس ظهره ويخرخر بصوت القط المكتوم. وكان يمكنه أيضًا أن يصدر شررًا من عينيه، ولكن ليفعل ذلك لابد من المسح على ظهره عكس اتجاه الشعر. أما الدجاجة فكانت رجلاها قصيرتين وقريبتين من الأرض جدًا، لذلك كانت تسمى «بالقزمة». وكانت تضع بيضًا كثيرًا، وتحبها العجوز كثيرًا وكأنها ابنتها.

وفي الصباح، لاحظا الغريب على الفور، وبدأ الهر يخرخر والدجاجة تقرقر.

قالت العجوز وهي تنظر حولها: «ما الأمر؟» فقد كانت ضعيفة البصر فظنت الصوص بطة سمينة ضلت طريقها، وقالت: «هذا صيد سعيد. الآن يمكن أن أحصل على بيض بط، إلا إن كان ذكرًا. لكن علينا أن نحاول».

وهكذا تم قبول الصوص على سبيل الاختبار لمدة ثلاثة أسابيع، لكن البيض لم يأت. كان الهر سيد البيت والدجاجة سيدته. وكانا دائمًا يقولان: «نحن والعالم». فقد كانا يعتقدان أنهما نصف العالم ـ بل نصفه الأفضل على الإطلاق. ظن الصوص أنه يستطيع أن يخالفهما الرأي، لكن الدجاجة ما كانت لتقبل ذلك.

سألته: «هل تبيض؟»

«لا!»

«إذن الأفضل لك ألا تفتح فمك».

وسأله الهر: «هل تستطيع أن تقوس ظهرك وتخرخر وتطلق الشرر؟»

«لا!»

«إذن ينبغي أن تحتفظ بآرائك لنفسك حين يتحدث الأذكياء».

قبع الصوص في الركن في حالة سيئة. وأخذ يستحضر في خياله الهواء المنعش وضوء الشمس، واجتاحته رغبة غريبة في الطفو على الماء. وفي النهاية، لم يستطع أن يكتم ذلك، وقرر أن يخبر الدجاجة بما في نفسه.

قالت له الدجاجة: «ماذا دهاك؟ كل ما في الأمر أنك لا تجد ما يشغلك. هذا ما يسمح لهذه الأفكار بأن تأتيك. ضع بيضاً أو كركر، وسيزول هذا كله».

قال الفرخ: «لكن الطفو على الماء أمر رائع. فكم هو جميل أن تدخلي رأسك في الماء وتغطسي حتى القاع».

«يا سلام!؟ أي متعة عظيمة في ذلك؟ لابد أنك قد جننت. لم لا تسأل الهر؟ وهو أحكم من أعرف، إذا كان يحب الطفو على الماء أو الغوص فيه. ولن أتحدث عن رأيي. بل سل صاحبتنا العجوز، إذ لا

يوجـد من هو أحكم منهـا في الدنيـا كلهـا، هل تظن أنهـا تحب الطفـو على الماء، أو تحب أن يعلو الماء رأسها؟»

قال الفرخ: «أنت لا تفهمينني».

«حسنًا، إن لم نفهمك نحن فمن يستطيع؟ هل تظن أنك أعقل من الهر والعجوز، فضلاً عني! لا تثر جلبة أيها الصغير، واشكر ربك على كل ما أسديناه إليك من معروف. ألم تأوِ إلى غرفة دافئة وسط أناس يمكن أن تتعلم منهم شيئاً؟ أنت أحمق وصحبتك لا تجلب السعادة. صدقني أنا أقول لك الحقيقة القاسية من أجل صالحك، وهكذا يعرف الصديق الحق! والآن ما عليك إلا أن تبدأ بوضع البيض، أو تتعلم الكركرة أو إطلاق الشرر».

قال الفرخ: «بل أظن أنني سأخرج إلى العالم الواسع».

قالت الدجاجة: «هيا، افعل ذلك».

وهكذا خرج الصوص إلى العالم الواسع وطفا على الماء وغطس فيه. لكن كانت الحيوانات جميعًا لا تزال تتجاهله بسبب بشاعته.

جاء الخريف. وتحولت أوراق أشجار الغابة إلى الذهبي والبني، وكانت الرياح تهزها حتى جعلتها ترقص في كل اتجاه. بدا الهواء باردًا والسماء ملبدة بالثلج والبَرَد، لدرجة جعلت غرابًا كان يجلس على السور يصيح «آي، آي» من فرط البرد. نعم، إن مجرد التفكير في ذلك الطقس ربما يصيب الواحد بالتجمد. لم يكن الصوص الصغير المسكين مرتاحًا بأي حال من الأحوال.

وذات مساء، والشمس تغرب في جمال غامر، خرج سرب كبير من الطيور الكبيرة الجميلة من بين الشجيرات، لم ير الصوص شيئاً في جمالها من قبل. كانت تلمع بياضًا ولها أعناق طويلة رشيقة، كانت طيور البجع. أطلقت صيحة غريبة ونشرت أجنحتها المهيبة لتطير من هذه المناطق الباردة إلى بلاد أكثر دفئاً وبحيرات غير متجمدة. ارتفعت تلك الطيور أعلى وأعلى، وتملك الصوص شعور غريب عجيب. فدار في الماء ومد عنقه إلى الأعلى نحوها، وأطلق فجأة صيحة عالية جداً وغريبة جداً حتى إنه هو نفسه فزع منها.

لم يستطع أن ينسى قط تلك الطيور الجميلة، تلك الطيور السعيدة. وعندما غابت عن نظره غطس إلى قاع الماء، وعندما صعد مرة أخرى، كان في حيرة شديدة. لم يكن يعرف اسم تلك الطيور، ولا إلى أين تطير، لكنه أحبها بالرغم من ذلك، أحبها أكثر من أي شيء آخر. لم يكن يغار منها، ولم يخطر بباله قط أن يتمنى لنفسه مثل هذا الجمال. كان يرضيه أن يتسامح البط معه، كونه ذلك المخلوق المسكين البشع.

كان الشتاء باردًا، بل شديد البرودة. وكان على الصوص أن يسبح باستمرار حتى يمنع تجمد الحفرة التي يسبح فيها، لكن الحفرة كانت تضيق كل ليلة، وكان الصقيع المتجمد سميكًا للغاية، لدرجة أنه كان يصدر صوت طقطقة. كان الصوص مضطرًا لتحريك رجليه طوال الوقت ليمنع تجمد الحفرة تمامًا. وفي النهاية، تملكه التعب حتى سكن، ثم تجمد سريعًا وسط الثلوج.

وفي الصباح الباكر مر مزارع ورأى الصوص وأقبل عليه وكسر الثلج حوله بحذائه الخشبي، ثم حمله معه إلى بيته حيث توجد زوجته، وهناك عادت له الحياة.

كان الأطفال يريدون اللعب معه، لكن الصوص ظن أنهم يريدون إيذاءه، فاندفع نحو وعاء اللبن حتى سكبه وتطاير رذاذه في الغرفة. صرخت الزوجة ولوحت بذراعيها في الهواء، فطار الصوص إلى وعاء الزبد ثم إلى برميل الدقيق مرة ومرة. كان منظره غريبًا، صرخت الزوجة وحاولت أن تضربه بملقاط المدفأة، واصطدم الأطفال بعضهم ببعض وهم يحاولون الإمساك بالصوص وهم يضحكون ويصرخون. ولحسن الحظ كان الباب مفتوحًا، فاستطاع الصوص أن يندفع خارجًا بين الشجيرات التي تغطيها الثلوج المتساقطة، ورقد الصوص هناك وكأنه في بيات شتوي.

مر الصوص بأخطار ونوبات يأس لو قصصتها لأصابتنا بقدر كبير من الاكتئاب. كان يرقد في المستنقع بين أعواد القصب حين بدأت الشمس تسطع دافئة وبدأت العصافير تغني. فقد عاد الربيع.

رفع الصوص جناحيه على الفور، فأحدثا حركة في الهواء أشد من ذي قبل، ثم حمله جناحاه بقوة إلى أعلى ثم إلى بعيد وسرعان ما وجد نفسه في حديقة كبيرة أزهرت أشجار التفاح فيها، وملأت أزهار الليلك جوها بالعطر الذي امتد حتى قنوات الماء الملتوية. كم كان الطقس رائعًا هنا، منعشاً كما ينبغي للربيع. خارج الحديقة، رأى أمامه

مباشرة ثلاثاً من البجع الأبيض الجميل تقبلن وقد نفشن ريشهن و طفون على سطح الماء بخفة كبيرة. عرف الصوص هذه الطيور الجميلة، وغمره إحساس غريب بالحزن.

«سأطير إليها، تلك الطيور الضخمة. أنا المخلوق البشع سأقترب منها، حتى لو مت من عضها. لن يهمني، فخير لي أن يقتلنني من أن يعضني البط وينقرني الدجاج و تركلني الفتاة التي ترعى حظيرة البط، ولن أقبل معاناة شتاء آخر». وطار إلى الماء، وسبح باتجاه البجع الرائع. فلما رأينه أسرعن نحوه بريشهن المنفوش، فقال المخلوق المسكين: «هيا اقتلوني!» وانحنى برأسه نحو سطح الماء ينتظر موته... لكن ماذا رأى على سطح الماء الصافي؟ رأى صورته فلم يعد ذلك الطائر الرمادي الأسود الدميم المقزز، بل كان هو نفسه بجعة.

«لا يهم إن كنت قد ولدت في حظيرة بط، فقد خرجت من بيضة بجعة».

شعر وقتها بالرضا عن كل المعاناة والعداوات التي تعرض لها، لأنه الآن يقدر حظه الطيب، وكل الجمال الذي كان في انتظاره. سبحت البجعات الكبيرة حوله ومسحن عليه بمناقيرهن.

جاء بعض الأطفال الصغار إلى الحديقة وألقوا فتات الخبز والحبوب في الماء، وصاح أصغرهم قائلاً: «هناك بجعة جديدة»، فصاح كل الأطفال فرحًا مرددين: «نعم، وصلت بجعة جديدة».

وصفقوا ورقصوا وجروا إلى أبيهم وأمهم، ثم ألقوا خبزًا وكعكًا في الماء، وقالوا جميعًا: «البجعة الجديدة هي أجملهن! صغيرة وذات جمال خلاب». انحنى البجع العجوز تحية له، فوضع رأسه تحت جناحه حياءً ولم يدرِ ماذا يفعل.

كانت السعادة تغمره! لكنه لم يتكبر: فالقلب الطيب لا يحمل كبرًا. تذكّر ما لاقاه من سخرية وسوء معاملة، وهو يسمع الجميع الآن يقولون إنه الأجمل بين كل الطيور الجميلة. انحنت له زهور الليلك حتى لمست فروعها سطح الماء، وسطعت الشمس بالنور والدفء. نفش ذكر البجع الجميل ريشه، ورفع عنقه الدقيق، وكانت السعادة تملأ قلبه، وقال: «لم أحلم قط بأن كل هذه السعادة ممكنة، عندما كنت الصوص الدميم».



تطبيقات الحكاية

لا يتوقف النجاح في الحياة على مهنة أو منصب يرنو إليه الجميع، بل يحقق الناس النجاح عندما يجدون مكانهم الطبيعي و ذواتهم الأصيلة. ومكاننا الطبيعي ليس بالضرورة وسط من نعمل أو نعيش معهم، بل مع من يشاركوننا ما نحب أو يشجعوننا عليه. وليس معنى التقدم في العمر أننا وجدنا ذواتنا الأصيلة. فالتوحد مع هذا الجوهر لا يحدث إلا بسقوط صور الذات المزيفة.

إن رحلة اكتشاف الذات رحلة متعبة، تأخذنا من حالات الاستقرار والاندماج، إلى حالات من الاضطراب والنمو الحاد المجهد، ثم إلى الاستقرار والاندماج في المستوى التالي. عندما يمر الأطفال في عمر السنتين، أو المراهقون بمرحلة عدم الاستقرار، نعتبر ذلك عاديًا ونصفهم في هذه المرحلة بأنهم «صعبو المراس»، أما عندما يمر الكبار بذلك فنقول إنهم متسيبون وغير مسؤولين. أما الوصول إلى رؤية أفضل لذواتنا وعملنا والعالم كله فيقتضي وضع مفهوم «التكيف» تحت الاختبار، أي أنه لابد من بعثرة بعض الريش.

الرؤية الأفضل للذات

البط الدميم غير متجانس مع محيطه. يتعرض للأذى لأنه مختلف للغاية وأكبر وأكثر بشاعة مما يطيق من حوله. مثلهم كمثل صوص الحكاية، يشعر كثير من الناس في مكان العمل بالتمييز ضدهم، لأنهم

غير متناغمين مع الصيغة السائدة، بسبب النوع أو العرق أو الدين أو التعليم أو المزاج. قد تكون الأحكام التي يصدرها عليهم مجتمعهم مؤذية لكن الضرر الحقيقي لا يحدث إلا عندما يتبنون تلك الآراء.

تجاهل الأصوات السلبية

لا عجب أن البط الدميم نمت داخله صورة للذات تستحق الرثاء. فعندما يفزع سرب من الطيور، يظن أنها طارت من فرط بشاعته وعندما لا يلتقطه كلب الصيد يرجع سبب ذلك إلى أنه «مقزز لدرجة أن الكلب نفسه يعاف أن يعضه». يشبه كثير منا هذا الفرخ: ففي داخلنا ناقد قاسٍ لا يتوقف عن تذكيرنا بنقائصنا وعن الحط من تقديرنا لذواتنا. ويعاني آخرون من نقيض هذه المشكلة ويحتاجون إلى من يوخز ذواتهم المتضخمة حتى يقاوموا حديث تعظيم الذات الداخلي. هذا الحديث الداخلي يمنعنا في الحالتين من التواصل مع طبيعتنا الأصيلة. ولابد من تجاهل هذه الأصوات السلبية حتى نتمكن من سماع صوتنا الحقيقي الفريد.

تأكيد الذات

بعد الهروب من سوء المعاملة في حظيرة البط، ومن العنف في المستنقع، وجد الصوص الأمان مع العجوز وهرها ودجاجتها. وعلى خلاف البطة الأم التي لم تتجاوز حد التكيف، كان الهر والدجاجة يريدان السيطرة. فهما عادة يبدأان حديثهما بعبارة «نحن والعالم» لأنهما يظنان أنهما نصف العالم بل «النصف الأفضل جداً». وهما

هكذا يشبهان نوعاً من المديرين ممن يرون أنفسهم عقول الشركة، بل أفضل عقول فيها، أو يشبهان نوعاً من الزملاء متصلبي الرأي يشعرون أنهم أرقى من الإدارة مما يجعلهم يقاومون كل تغيير.

عندما تكور الصوص في أحد الأركان بدأ يحن للماء، ويتمنى لو يغطي به رأسه، ويغطس حتى قاعه. وتظن الدجاجة أن هذا الشغف شغف أجوف نتج عن الخمول، وتنصحه أن يجد ما يشغله. ولحسن الحظ يتجاهل الصوص نصيحة الدجاجة ويتبع شغفه.

في حياة أغلبنا دجاجة متسلطة. نراها بسهولة في أحد الوالدين أو في الأصهار أو في زوج أو صديق أو زميل أو مدير، لكننا غالباً لا ننتبه إلى صوت «لقلقتها» في رؤوسنا. فهي الصوت المسؤول، الواقعي الذي يصيح قائلاً: «لا ينبغي أن تلتفت إلى شغفك الآن، فهذا سيضر مستقبلك المهني»، «لا تفعل، فليس لديك الوقت»، «لا تفعل، فثمة آخرون يعتمدون عليك».

وعلى الرغم من أن أسلوبها الحاد يساعدنا على التعامل مع الأمور العملية، إلاّ إنه لا ينبغي أن نتركها تدير حياتنا: فإن فعلنا فسيزيد انشغالنا، ويضيق أفقنا بحيث نعجز عن التعلم وتصيبنا الشيخوخة قبل الأوان.

شبهت إليانور روزفلت ـ سيدة أمريكا الأولى من عام 1933 إلى عام 1945 طفولتها بطفولة البط الدميم. فقد تيتمت في العاشرة من عمرها وقام على تربيتها أقارب لها، وكان لديها شعور مزمن بالدونية والخوف. كانت نساء جيلها قد تربين على خدمة أزواجهن، وقد قبلت

ذلك بوصفه قدرها. كما أنها واجهت «دجاجة» مهيمنة هي «حماتها»، واستغرق الأمر أعواماً قبل أن تجرؤ إليانور الصغيرة على إعلان رأيها، حتى داخل أسرتها. ولكن بعد وقوع حدثين حاسمين ـ خيانة زوجها لها ثم إصابته بالشلل ـ بدأت تدافع عن نفسها بشراسة. فلما صارت السيدة الأولى، أثناء الكساد العظيم والحرب العالمية الثانية، كانت مستعدة للدخول في العالم الكبير. سافرت في أنحاء البلاد تستمع إلى المهمشين الذين لا صوت لهم. و صارت بمظهرها البسيط وكلامها البسيط صوتاً لمن لم يكن مسموحاً له بالكلام، ولاسيما النساء والأمريكيين الأفارقة. ولقد أصبحت إليانور واحدة من أحب الأمريكيين إلى الناس في زمنها، عندما نضجت ورأت البجعة التي بداخلها وتمثلتها.

إيجاد الذات

في الخريف، يرى الصوص صورة خاطفة لما يمكن أن يصير: وذلك عندما يرى سربًا من البجع المهيب يطير في الأعالي في بداية رحلة الهجرة. كانت رؤية تلك الطيور مربكة، ومطمئنة في الوقت ذاته، فقد عاش عليها طوال الشتاء القاسي.

وفي الربيع، يطير الصوص كامل النمو بضربات جناحيه القوية المدوية إلى حديقة جميلة. وهناك يندفع البجع الأبيض نحوه بريشه المنفوش، ويقترب المصير. يحني الصوص المفزوع رأسه نحو الماء الصافي، حيث يرى صورته الحقيقية أخيرًا. فهو نفسه بجعة. هذه هي لحظة التحول، حين تموت هويته الزائفة وتولد الأصيلة.

مواجهة العظمة فينا قد يكون أمرًا مفزعاً. فربما نشعر بالأمان عندما نرى شيئاً رائعًا من بعيد، لكننا نفزع عندما يأتي إلينا مباشرة ويقول: «هيا انضم إلينا». ربما نخشى ألا نطاول عظمته، أو أن نحرج أنفسنا، فيكون الأسهل أن نبتعد عن المخاطرة، فنتراجع. لكننا لن نرى جوهرنا الأصيل أبداً ما لم نجرؤ على الانضمام إلى من نعتبرهم «عظماء».

تطورت هوية الصوص الدميم خلال الحكاية، وكذلك لكل منا رحلة داخلية لابد أن يتمها. فهل تمر عليك أوقات تنظر حولك وتقول في نفسك: «ليس هذا مكاني؟» هل تتمسك برأيك في مواجهة الدجاج المتغطرس؟ إلى من تنجذب، ومع من تحب أن تقضي وقتك؟ وممن تحب أن تتعلم؟

رأي أفضل في العمل

«قال الفرخ: لكن الطفو على الماء شيء رائع جداً، ومن الممتع للغاية أن تجعل الماء فوق رأسك وتغطس حتى القاع».

يتشكل قدر كبير من هويتنا وتقديرنا للذات بما نفعله، وإن لم يكن الأمر كذلك دائماً. ففي زمن هـ. ك. أندرسون، كان الميلاد هو ما يحدد المكان الذي يمكن أن تعيش فيه، ونوع العمل الذي يمكن أن تتخذه، والزوج أو الزوجة التي يمكن أن تقترن به أو بها. وقد واجهت أنا نفسي بقايا من هذا البناء الفكري عندما قضيت وزوجي الصيف

الماضي في قرية جبلية إسبانية تنتمي إلى العصور الوسطى. كان أول سؤال وجه إليّ «من أي بيت أنتِ؟» وكانت هويتي أنني زوجة ابن أوغستين، وكان أوغستين ابن معلم المدرسة الأسبق. وبعد عودتي للولايات المتحدة ذهبت إلى منتجع بعيد، ولكن حتى في هذا المكان الباعث على التأمل كان السؤال الأول: «ما عملك؟» كان ذكر العمل طريقتنا في التعريف بأنفسنا. وكان التناقض مدهشاً. وقد ذكّرني ذلك بأن المجتمع القائم على السمات الشخصية يكون العمل فيه جزءًا حيويًا من هويتنا. وأستدعي هنا ديكارت مع التصرف فأقول: «أنا أعمل: إذن أنا موجود».

يستغرقنا العمل أحياناً، إذ نعشق ما نعمل، ونقدر من يعملون معنا. فنحن راضون. ولكن حتماً يحدث ما يعكر هذا السكون. فقد يكون أحداثاً خارجية، مثل تعيين مدير جديد أو تطبيق استراتيجية جديدة، أو إعادة تنظيم على نطاق واسع، وأحياناً أخرى تكون تغيرات داخلية: فربما استشعرنا ظهور تعارض بين ما يُطلب منا أن نفعله وما نؤمن به، وربما لم نعد نجد أنفسنا فيه، وقد نسمع أنفسنا نكثر من الحديث عما يضايقنا لا عما نحب، أو كأن نشعر في نهاية اليوم بالخواء أو الإحباط أو السخط أو الانزعاج أو التشتت أو عدم الرضا عن حياتنا. كان هذا هو شعور الصوص داخل جدران البيت القديم. لكننا غالبًا ما نتجاهل هذه الأعراض، ونتمنى أن تُحل مشكلتنا بمرور الزمن أو بالمزيد من العمل، فنعود مرتاحين كما كنا.

وأحياناً نخاف من أن يكون «الخروج للعالم الواسع» معناه أن نترك وظائفنا لنقوم بشيء مدهش. لكن الإقبال على العالم يعني تغيير أنفسنا أكثر مما يعني تغيير عملنا. ويؤكد جوناثان ينغ، وهو أحد المساعدين السابقين لعالم الميثولوجيا (علم الأساطير) جوزيف كامبل، أن ترك المرء عمله غالباً ما يكون الحل الأسهل. فقد كتب في رسالة إلكترونية حديثة «إن التمسك بالوظيفة الحالية والبحث عن سبيل لبعث حياة جديدة فيها لا يقل بطولة وإبداعاً مؤثرًا عن قرار ترك العمل».

يقدم العاملون في سوق السمك في بايك بلاس، في ولاية سياتل، مثالاً رائعًا على ما يقصده جوناثان ينغ. فمهنة «صيادي السمك لم تكن قط ضمن الخيارات العشرة الأولى لمعظم الناس». فالعمل شاق وبه من الروائح الكريهة واللزوجة والقذارة الشيء الكثير. ومع هذا يفخر صيادو السمك في بايك بلاس بعملهم كما يبين ذلك الفيلم التسجيلي «السمك».

بدأ الأمر بمديرٍ قرر أن ينظر إلى موظفيه بوصفهم أناسًا لهم اهتماماتهم الشخصية وسألهم: «ما المطلوب منا إن أردنا أن نرتقي بمكان عملنا؟». قال أحد صيايدي السمك الشباب: «لماذا لا نحقق شهرة عالمية مادمنا سنقضي كل عمرنا هنا؟» استبعد الآخرون الاقتراح في البداية، ولكن شيئاً فشيئاً بدأت المجموعة تتحدث عن طريقة تعاملهم مع بعضهم البعض إن هم صاروا صيادي سمك مشهورين عالمياً، وكيف سيتعاملون مع زبائنهم. وبينما استمروا في وصف كيفية التصرف لو أصبحوا مشهورين عالمياً: صاروا بالفعل مشهورين عالميًا.

يقدم هؤلاء الصيادون اليوم تجربة ذات فوائد استثنائية و بها من المتعة الشيء الكثير حتى إن هذا السوق صار واحداً من مزارات سياتل السياحية المهمة. وآتى ذلك التحول ثماره من المنظور التجاري، فما كان يعتبره العاملون عائداً طيبًا لأسبوع كامل من العمل، صاروا يحققونه في صباح أول أيام الأسبوع، دون أي زيادة في المساحة أو طاقم العمل. يبين لنا هؤلاء الصيادون أننا يمكن أن ننفث حياة جديدة في عملنا القديم إن غيرنا أنفسنا.

وبينما أبدي إعجابي بأناس مثل هؤلاء السمّاكين، فإن نسق حياتي المهنية يقول إنني أميل إلى اتخاذ الطريق السهلة أي أن أترك العمل إلى غيره. فثمة «وخزة في القلب» كانت تقلقني وتؤرقني، فكنت دائماً مستعدة للخروج إلى العالم الواسع. لكنني ـ على نقيض الصوص ـ لم أكن أعرف أين أذهب: ففي مهنتي الأولى، العلاج الطبيعي، أتذكر الشعور بعدم الانتماء، حتى إنني تحدثت مع زميلة عن رغبتي في أن أعمل شيئاً ذا قيمة: فقالت: «ميتي، أنتِ تجعلين العرجى يمشون! فأي قيمة أكبر من ذلك تطلبينها لعملك؟» كانت محقة في أن العلاج الطبيعي عمل «جيد»، لكنه لم يكن عملي أنا. وبعد عدة منعطفات، أدركت أخيرًا أن عملي الحق هو مساعدة الناس على أن ينهلوا من جوهرهم الأصيل حتى يصلوا إلى أداء عظيم في عملهم، أن أساعد الناس على أن يكونوا أحياء بحق في أعمالهم.

ولأني بالغت في قراءة كتب مساعدة الذات، فقد أبطأت في اقتناء كتاب ستيفن ر. كوفي «العادات السبع للناس الأكثر تأثيرًا». ولكن عندما قرأته، اكتشفت إطارًا للتمية الشخصية يلهب الخيال ويمس أساسيات الحياة وعملي في آنٍ واحدٍ. تأثرت بالكتاب حتى التحقت بمركز كوفي لإعداد القادة، ووجدت نفسي أسبح مع مئات البجع الذين يشاركونني شغفي بالقيادة. كانت القوة وكان الدّوي الذي أثارته أجنحتنا عندما انطلقنا بداية لحركة جماعية ضخمة نحو هذا المجال. ولكن، كما يحدث دائماً، تغيرت الأمور. وفي حالتنا هذه، واجهت الشركة تغيرات في أحوال السوق وتوقعات المستهلكين، فاستجابت للاندماج مع شركة أخرى وقيادة جديدة، واستراتيجيات جديدة ومحتوى جديد. ومع الوقت تباينت اهتمامات الشركة مع اهتماماتي، فلم يكن هناك بد من أن أترك تلك الحديقة الغنّاء حتى أنشئ المحتوى الذي يناسبني، لكنني لا زلت أذكر بسعادة ساعات السباحة مع البجع.

سواء سعينا إلى إعادة تشكيل مكان عملنا الحالي أم تركناه، فإن اكتساب المزيد من الأصالة والصدق يبقى الأمر الصعب. فعندما قال جوزيف كامبل «ابحث عن سبيل سعادتك» لم يكن يقصد «ابحث عن أوقات ممتعة تقضيها»، بل كان يقول: «اصغِ للصوت الخافت الثابت ـ ذلك النداء الذي لا يخطئ اسمك». ينطوي تنفيذ ذلك على مخاطرة، لأن ذلك الهمس لن يهدينا إلى طريق مهني واضح المعالم، بل سيطلب منا أن نصنع ذلك الطريق بأنفسنا.

عندما لا تكون راضيًا عن عملك، هل تنزع إلى الشكوى وتتمنى لو عادت الأمور إلى وضعها «السوي»؟ هل تنزع لأن تكون مبدعًا إبداعاً مذهلاً فيما بين يديك؟ هل تخرج إلى العالم الواسع فعلاً؟

رؤية أوسع للعالم

«وعلى الفور رفع جناحيه، فأثارا حركة في الهواء أشد من ذي قبل، ثم حملاه بقوة إلى أعلى ثم بعيداً».

منحنا العصر الحديث ذهنية هندسية نرى بها الحياة. فإذا كانت الحياة نهراً متدفقاً، فما كنا لنسعد بصوت مياهه المرتفع أو بقوة اندفاعه، وإنما سنعتبر ذلك مورداً مهدوراً. وعليه، سنبني سدًا لنستأنس هذه الشراسة، ومحطة كهرباء بدفع الماء لنستغل طاقته. صحيح أننا جنينا فوائد عديدة من هذا المذهب في الحياة، فقد دفعنا ثمنه دون أن ندري. فعندما نتعامل مع الطبيعة، والناس، ومع أنفسنا بوصفنا وسيلة إنتاج، نبتعد عن الحياة وننفصل عنها.

على العكس من ذلك، إن نظرة أرحب ستجعلنا نرى أن للحياة مقاصدها الأصيلة، كما رأى المدير في فيلم «السمك» أن عماله لهم رغباتهم الشخصية. وعندما نقبل على الحياة باهتمام بها لا بذواتنا، عندها سنكون أقرب إليها وأشد ارتباطًا وانشغالاً بها. وعندما نكون في بيئتنا الطبيعية فإن ارتباطنا يكون عميقاً، ليس بجوانب الحياة المبهجة بل وبجوانبها المفزعة أيضاً. كان الماء هو البيئة الطبيعية للبط الدميم، يزداد حياة عندما يغطس وينثر الماء، ولكنه أيضاً يفزع عندما

يصير لون الماء أحمر قانياً، وعندما يعلق في سطحه الذي صاد جليدًا. أما نحن البشر، فقد تكون بيئتنا الطبيعية عالم الشعر أو الفيزياء أو رعاية الأبناء أو العمل الشرطي، أو أي عمل يربطنا بما هو إنساني لا يتغير.

عندما نغطس في بيئتنا الطبيعية، البحيرة التي ننتمي إليها، يمكن أن نتعلم خمسة دروس هامة:

1 . إننا نمتلك القدرة. عندما رأت البطة الأم المخلوق غريب المنظر، خشيت أن يكون فرخاً رومياً. وحتى تختبره، أنزلت كل أفراخها إلى الماء، ولحسن الحظ سبح الصوص الدميم على الفور وببراعة. فقالت: أبدًا، ليس فرخاً روميًا. فها هو يستخدم رجليه برشاقة، وبرشاقة يتحرك مع طوله «لا شك أنه ابني».

عندما نكون في بيئتنا الطبيعية نكون أقوياء. وحتى يكون لعملنا معنى، لسنا مضطرين للقيام بمهام تصحيحية أو أعمال «طيبة»، بل يكفي أن نحسن ما يخصنا من عمل. لذلك فمن الضروري أن نعمل شيئًا لنا به اهتمام أصيل. فإذا كنا مرتبطين به على هذا النحو فسنبلغ حداً مدهشاً، بل استثنائياً، من الكفاءة.

2. نحن معرضون للمخاطر. بعد أن طار فوق السور، اختبأ الصوص في المستنقع ورقد في هدوء. اقتربت منه إوزتان ودودتان، ولكن بدأت عملية الصيد فجأة، وقتلت الإوزتان و «صار الماء أحمر من

لون الدم» والأسوأ من ذلك أن جاء كلب صيد مخيف ينطلق وسط أعواد القصب، فكاد الصوص يموت فزعًا. الحياة في البرية لها مخاطرها.

عندما نهتم بشيء اهتماماً صادقاً، فإننا نفتح على أنفسنا باباً للألم فمن يحبون اللغة تؤلمهم التعبيرات المستهلكة التي يجدها غيرهم ذكية. ومن يهتمون بالعدل تؤلمهم المظالم التي لا يكاد يلاحظها غيرهم. فلا مناعة تُعطى لمن يجرؤ على الارتباط بشيء ما بكل كيانه.

3. نحن أحياء حقاً. بعد أن تجاوز الصوص الحقل، وجد الأمان مع الهر والدجاجة اللذين انتظرا منه أن يخضع لرأيهما الأرقى من رأيه. لكن الصوص الآن يبدي درجة مدهشة من الشجاعة: فلا الإحساس بالذنب يخضعه، ولا سلوكهما الاستعلائي يرهبه، ولا منطق الدجاجة يقنعه: فالصوص يدرك أن للقلب أسبابه الخاصة.

لا يود معظمنا أن يبدو «صعب المراس» أو غير عقلاني، لذلك نتوافق مع الثقافة السائدة. ولكن عندما نتجاهل شغفنا تفتر همتنا. كنت منذ عامين في حالة فزع، ثم سمعت الشاعر المعاصر ديفيد وايت يقول «كل ما عليك أن تقوله هو لماذا بالتحديد لا تشعر بالانتماء وأنت في الطريق إلى بيتك». وفجأة انفتحت الأبواب ليندفع فيضان من الإحباطات المحجوزة مني تجاه الحاسوب. وعندما راجعت ما كتبت، بعد ذلك، رأيت أن كل تعليق كان يخفي حاجة معينة أو رغبة أو حلماً للمستقبل. وقد ساعدني هذا التفكير فيما بعد عندما قررت أن أتبع شغفي وأن أواجه دجاجتي الداخلية.

4. يمكن أن نعْلق. واجه الصوص في البرية شتاءً قاسياً، كان الصقيع كثيفاً إلى حد أنه كان مضطرًا لاستخدام رجليه طوال الوقت حتى يبقي بركة السباحة مفتوحة، «وفي النهاية تملكه التعب حتى سكن ثم تجمد سريعًا وسط الثلج».

حتى في بيئتنا الطبيعية قد نحمل أكثر مما نطيق، ونكون في حركة دائبة، وفي حيز أكبر منا كثيرًا، ويحاصرنا نجاحنا. فإحساس الفرد بأنه لا يملك الوقت الذي يتيح له أن يكون «صعب المراس» يجعله يتجمد في تطوره. عندها نحتاج لمن يخرجنا من هذا الحصار، قد يساعدنا في ذلك كتاب نقرأه أو محادثة طويلة مع صديق: فيسري الدفء في قلوبنا ونستطيع أن نكسر النمط الذي علقنا به.

5. نحن ننتمي. رؤية الصوص للبجعات عن قرب تلهمه وتربكه في آن واحد. وفي الربيع لا يملك إلا أن يقترب من البجع، ويصيبه الفزع عندما يندفعن نحوه. والنهاية، في لحظة انكشاف الحقيقة، يرى صورته ويدرك حقيقة جوهره. ويعرف إلى من ينتمي

يشعر المرء بالانتماء عندما يعمل ما يحب أن يعمل. فنحن ننتمي عندما نعمل مع من يشاركوننا شغفنا أو يشجعوننا عليه، وننتمي عندما نمر بما يصفه الكاتب المسرحي جورج برنارد شو بأنه «متعة الحياة الحقة»: أن نُستعمل في تحقيق هدف، نرى نحن أنه هدف كبير، ولكن فكرة الانتماء غالباً ما تصيبنا بالهلع، لأننا عندما نُجند

أنفسنا لشيء أكبر من مصالحنا الشخصية، نصير أضعف، لأننا نتخلى عن توهم أننا المسيطرون. هذه رحلة لا يمكن فيها ضمان سلامة الطريق.

قد تبدو فكرة رحلة الاستكشاف مثيرة، لكن أغلبنا يفضلها رحلة عمل. فإذا بنا نطلب أجندة تفصيلية حتى نعلم كيف نجهز لها، نريد خط سير محسوم حتى لا نضيع الوقت، ولا نريد أي مفاجآت. ولكن الحذر واجب حقاً إذا قدّم لنا أحد خط سير كهذا، فلن يكون ذاك طريقنا بل طريقه.

ينبغي أن نقبل أن الحياة مخاطرة. وليس بوسع أحد أن يضمن لنا النجاح التقليدي عندما نقفز من فوق سور، أو نجري عبر حقول، أو ننشر أجنحتنا. ولكننا ينبغي أن نتأكد أننا ننضج، وأن الحياة ستكون أكثر ثراءً وأكثر رضا وأكثر عمقاً.

نقاط تستحق التفكير

- ما الأصوات التي ينبغي أن تتجاهلها؟ هل هي الأصوات التي تحكم عليك في حظيرة البط أم إلحاح

الدجاجة الذي لا يخلو من منطق؟

- أي الأفراد أو الفئات يجذبك إليه؟ ومن تحب أن تتعلم منه؟

موضوعات تستحق أن تناقشها مع زملائك

- هل جربت السباحة مع البجع؟ ماذا فعلت؟ وكيف كانت تلك التجربة؟
- كيف يساعد بعضنا بعضاً للوصول إلى طبيعة البجع الموجودة فينا؟



3

حكاية

خنفس الروث

عندما نريد المكانة، نسعى لتطوير أنفسنا



خنفس الروث مغامرة سريعة الإيقاع وممتعة: فالخنفس عصبي المزاج يخرج إلى العالم ويواجه مصاعب كثيرة، ولكنه يعود من مغامرته دون أن يتغير من رؤاه المغلوطة شيء. وما كان استعصاء هذا المخلوق على التغير بعدما مر به من مواقف إلا لأنه نموذج للنرجسي الكامل: فعندما يواجه معلومات تتحدى صورته المتضخمة عن ذاته، يعيد تأويل الحقائق على الفور. وشعار خنفس الروث هو: «لا يهم أن تعرف نفسك، المهم أن تتعلم كيف تنسج حولها الحكايات».

تبدأ المشكلة عندما يكافأ حصان الإمبراطور بحذوات ذهبية، وقد استهزئ بالخنفس. فيُستفز الخنفس المغالي في تقدير مكانته: ويرى أنه لا يقل أهمية عن الحصان وأنه تعرض للظلم. ترفض الحشرة مواجهة الواقع، فتظل طوال الحكاية تستنفد طاقتها في الدفاع عن هذا الوهم.

وبينما تقرأ الملخص التالي ـ أو الحكاية كاملة إن شئت ـ ندعوك إلى التفكير في الأسئلة التالية: ما الذي يجذبك إلى بعض الشخصيات؟ ما الذي يضايقك؟ هل تذكرك الحكاية بمواقف فضلت فيها الوهم على علم الحقيقة؟

ملخص الحكاية

كوفئ جواد الإمبراطور بحذوات ذهبية لأنه حمل الإمبراطور في المعركة، وقاتل بشجاعة، وأنقذ حياة الإمبراطور.

عندما أنهى الحداد تركيب الحذوات الذهبية، زحف خنفس الروث خارجاً من بيته، ورفع أرجله النحيلة وقال: «الأرجل الكبيرة أولاً ثم الصغيرة». سأله الحداد: «ماذا تريد؟» فرد عليه الخنفس: «أحذية ذهبية». قال الحداد: «ولكن ألا تعرف لماذا يكافأ الحصان بأحذية ذهبية؟ ألا تفهم؟» صاح الخنفس في وجه الحداد: «أفهم ماذا؟» فقد كان الحصان - في رأي الخنفس - مخلوقاً كسولاً، يعجز عن أن يطعم نفسه أو يسقيها، ومع ذلك تلقى معاملة متميزة. وهنا رحل الخنفس الساخط غاضباً.

طار خنفس الروث من الاصطبل وحط في حديقة أزهار جميلة، وسمع خنفساء مرقطة الجناحين تقول: «أليس المكان هنا بديعاً؟» ولكن الخنفس سفّه كلامها قائلاً: أتصفين هذا المكان بالجمال؟! «هذا المكان الذي لا يوجد به حتى كومة واحدة من الروث!» ثم قابل يرقة فراشة، كانت تتحدث عن «نومها العميق» ثم استيقاظها بسبب فراشة تطير. اعتبر الخنفس أن يرقة الفراشة تهذي، فسخر منها وطار وهو يشعر بالضجر الشديد.

بعد ليلة من المطر الغزير، سمع الخنفس ضفدعين يقولان إن من لا يعشق هذا الطقس المطير لا يحب وطنه. وعندما سألهما الخنفس عن الطريق، تجاهله الضفدعان فشعر بالإهانة وقال في نفسه: «لن أسأل أحداً بعد اليوم». وكان قد سأل ثلاث مرات دون أن يرد عليه أحد.

و أخيراً، وجد الخنفس حفرة بها جماعة من نوعه، فتفاخر بينهم أنه أتى من اصطبل الإمبراطور، وأنه ولد وفي أرجله أحذية ذهبية. وسرعان ما تزوج الخنفس، لكنه ما لبث أن شعر بالضجر ورحل.

وبعد المزيد من المغامرات، رجع الخنفس في النهاية إلى الاصطبل: إذ طار عبر النافذة. وهبط على شعر عنق جواد الإمبراطور الناعم مثل الحرير. حاول الخنفس أن يعي ما حوله، ثم قال لنفسه: «ها أنا الآن أمتطي جواد الإمبراطور. فماذا أقول في ذلك؟ والأمر كله يتضح». وفجأة، امتلأ الخنفس بالسعادة وقال: «ليس العالم بقدر ما كنت أظن من سوء». لماذا منح جواد الإمبراطور حذوات ذهبية؟ لأن الخنفس سيكون راكبه.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... أن خنفس الروث مخلوق يسعى للمكانة العالية فيبالغ في تقدير ذاته بالرغم من أنه يأتي من أدنى المستويات، وهو يمتلئ بأوهام العظمة. ينطبق هذا الكلام على هـ. ك. أندرسون إلا أن خيالاته الجامحة قد تحققت.

تمثل حياة أندرسون نموذج هوراشيو باللغز الأمثل. فإذا كانت قصص النجاح غير شائعة في العالم الجديد: فهي تكاد تنعدم في العالم القديم. مع ذلك، وعلى رغم البنية المجتمعية المغرقة في الطبقية والانحيازات التي يمتد عمرها إلى قرون، استطاع أندرسون أن يشق طريقه، لا يعتمد إلا على موهبته الفطرية وروحه التي لا تقهر. فقد تعهد فنه بكل حماس، وكان وجوده ينشر البهجة، كما أنه تمتع بذكاء اجتماعي شديد، وكان يسعى للارتقاء بلا هوادة.

كان هذا الأديب يتمتع بموهبة التسويق، ففي أول رحلة له إلى الخارج كتب يوميات رحلته، ونشرها فور عودته إلى كوبنهاغن. وفيها عرّف قراءه بالمدن الألمانية العظيمة، وجبال الهارتز المهيبة، ونجوم المجتمع الألماني. ففي مدينة دريزدن، حضر منتدى لودفيغ تيك الأدبي، وكان في ذلك الوقت أعظم أدباء ألمانيا بعد غوته، وقد ذكر أندرسون في يومياته أن تيك سأل: «إن كنت أنا (أندرسون) مؤلف» رحلة على الأقدام

«وعندما أكدت ذلك، قال شيئاً غاية في اللطف...» وهكذا، قدم هـ. ك. أندرسون سيناريو يوحي بأنه كان بالفعل معروفاً في ألمانيا، بل يقرؤه أعظم فنانيها. أما ما تجنب أندرسون ذكره فهو أنه من أرسل نسخة كتابه إلى الأديب الألماني قبل هذا اللقاء بسنة. كانت هذه حيلة شديدة التأثير، وقد كررها أندرسون كثيراً في حياته عند زيارة الفنانين الكبار.

قام أندرسون بثلاثين رحلة تقريباً خارج الدنمارك، وأصبحت يوميات تلك الرحلات ذائعة ومحبوبة للغاية؛ بل إنها تعد من بين أفضل أعماله.

الحكاية الكلاسيكية

حصل حصان الإمبراطور على حذوات ذهبية، حذوة في كل قدم.

لماذا حصل على حذوات ذهبية؟ لأنه كان أجمل الحيوانات، له ساقان رشيقتان، وعينان ذكيتان، وشعر كخمار حريري ينسدل من على عنقه. وكان قد حمل سيده وسط سحابات من دخان البنادق ووابل من الرصاص. وكان يسمع صفير الرصاص وأزيزه، وقد اشترك في المعركة بنفسه فعض ورفس عند هجوم العدو. بعدها، قفز قفزة كبيرة، والإمبراطور على ظهره، من فوق حصان العدو الساقط على الأرض: فأنقذ تاج الإمبراطور المصنوع من الذهب الأحمر، وأنقذ حياة الإمبراطور نفسه: التي هي أغلى من الذهب الأحمر. ولهذا السبب، حصل جواد الإمبراطور على حذوات ذهبية ـ حذوة في كل قدم.

زحف خنفس الروث من مخبئه وقال: «الأرجل الكبيرة أولاً ثم الصغيرة، بالرغم من أن العبرة ليست بالحجم». ثم مد أرجله النحيلة للحداد.

سأله الحداد: «ماذا تريد؟»

رد خنفس الروث: «أحذية ذهبية».

«لابد أنك مجنون، هل تريد أنت أيضاً أحذية ذهبية؟!»

قال خنفس الروث: «أحذية ذهبية، ألست مثل ذلك الحيوان الضخم الذي يحتاج لمن يرعاه وينظفه ويعتني به ويطعمه ويسقيه؟ ألست أنتمي أنا أيضاً إلى اصطبل الإمبراطور؟»

سأله الحداد: «ولكن ألا تعلم لماذا يحصل الحصان على حذوات ذهبية؟! ألا تفهم؟!»

قال خنفس الروث: «أفهم؟ أفهم أن هذا قلة احترام لي، وأنها إهانة، لهذا فأنا خارج إلى العالم الواسع».

رد الحداد: «أسرع بالرحيل!»

قال الخنفس: «متسلط!» ثم خرج من الاصطبل، وطار لمسافة قصيرة. ثم هبط في حديقة زهور صغيرة بهيجة، تعبق برائحة الورود وأزهار الخزامى.

كانت إحدى الخنافس المرقطة بالأسود على أجنحتها الحمراء التي تشبه الدرع تطير هنا وهناك، وتقول: «أليس هذا المكان بديعاً!؟ فما أزكى رائحته! وما أطيبه من مكان!» رد عليها خنفس الروث قائلاً: «لقد نشأت وسط أشياء أجمل من هذه. أتصفين هذا المكان بالجمال؟! هذا المكان الذي لا يوجد به حتى كومة واحدة من الروث!»

ابتعد الخنفس حتى وصل إلى ظل نبتة كرنب كبيرة تزحف عليها يرقة وهي تقول: «ما أجمل الدنيا! الشمس دائمة الدفء، وكل شيء يبعث على البهجة. وعندما يأتي اليوم الذي أرقد فيه وأموت، كما يسمون رقادنا، سأستيقظ مرة أخرى وأكون فراشة تطير».

قال لها خنفس الروث: «من تظنين نفسك؟! أتظنين أنك فراشة تطيرين هنا وهناك؟! حتى وإن نمت لك أجنحة تطيرين بها: فأنا آتٍ من اصطبل الإمبراطور، ولا أحد هناك يشاركك الرأي، حتى جواد الإمبراطور الذي يرتدي ما أرميه من أحذية ذهبية». ثم طار خنفس الروث وهو يقول: «لن أغضب: مع أن ذلك يثير الغضب».

بعد ذلك، هبط في بقعة كبيرة من العشب، فرقد قليلاً ثم غلبه النوم.

وفجأة هطلت الأمطار الغزيرة، وملأ الماء كل مكان، فاستيقظ الخنفس وشرع على الفور في حفر الأرض، حتى يختبأ فيها، لكنه عجز عن ذلك، فتعثر وسقط وعام على بطنه، وانقلب على ظهره. كان الطيران مستحيلاً دون شك، وظن أنه لن يخرج من هذا المكان حياً، فرقد حيث كان.

عندما خف المطر قليلاً، واستطاع الخنفس أن ينفض الماء عن عينيه، لمح شيئاً أبيض اللون، كان مفرش سرير منشور، توجه الخنفس إليه ودخل إلى إحدى طيات المفرش المبلل. لم يكن بحال تشعره هنا بما كان يشعر به حين يرقد في كومة دافئة من الروث في الاصطبل. لكنه كان أفضل الأماكن المتاحة، فمكث هناك نهاراً كاملاً وليلة كاملة، مع استمرار الطقس المطير. وفي الفجر خرج خنفس الروث من مكانه وقد بلغ به الضيق من هذا الطقس مبلغه.

كان ضفدعان يجلسان على المفرش تلمع عيونهما، قال أحدهما: «ما أروع هذا الطقس! إنه منعش للغاية، وهذا المفرش يجمع الماء بصورة مدهشة: حتى إن رجلي الخلفيتين لتتأرجحان وكأني على وشك السباحة. قال الآخر: «أود أن أعرف إذا كان العصفور الذي يجوب كل الأجواء، لو أنه في رحلة من رحلاته الكثيرة قد وجد مناخاً أفضل من مناخنا، برياحه وأمطاره، وكأننا نعيش في مصرف مياه. فإن كان ذلك لا يسعد الواحد منا، فإنه بالتأكيد لا يحب وطنه».

سألهما خنفس الروث: «هل دخلتما يوماً اصطبل الإمبراطور؟ إن الطقس هناك دافئ وطيب الرائحة، هذا ما اعتدته، وهذا مناخي، ولكن لا يمكن أن آخذه معي في السفر. أليس في هذا البستان مستنبت يصلح أن يسكنه علية القوم من أمثالي ويشعروا فيه بالراحة؟»

لكن الضفدعين لم يفهما الخنفس أو لم يريدا أن يفهماه.

«لن أسأل مرة ثانية أبداً». قال خنفس الروث ذلك بعد أن سألهما بالفعل ثلاث مرات دون أن يجد إجابة.

ثم ابتعد عنهما قليلاً، فوجد أصيص زهور فخاري ملقىً على الأرض. لم يكن هذا مكان الأصيص الأصلي، لكن وجوده هنا وفّر مأوى للخنفس. كان يعيش في الأصيص عدد من عائلات حشرة المقص التي لم تكن تحتاج مساحة كبيرة، بقدر ما تحتاج إلى الصحبة. وكانت إناثها تتمتع بمشاعر أمومة فياضة، فكانت كل أم ترى صغارها الأجمل والأذكى.

قالت إحدى الأمهات: «خطب ابننا، هذا الولد الجميل البريء الذي كل طموحه أن يتسلق ليدخل أذن قسيس. إن به طفولة آثرة، وهذه الخطوبة هي التي تحفظه من الجموح، وهذا شيء يريح كل أم».

قالت أم أخرى: «أما ابني فما إن خرج من البيضة حتى ظهرت شقاوته، الولد مفعم بالطاقة، إنه لا يترك شيئاً على حاله، وهذا يسعد كل أم، أليس كذلك يا سيد خنفس الروث؟» فقد عُرف القادم الجديد من شكله.

رد خنفس الروث: «كلاكما على حق». وهكذا دعونه إلى غرفة المعيشة، وهي أقصى مكان داخل ذلك الأصيص الفخاري.

قالت الأم الثالثة والرابعة: «والآن يجب أن ترى أطفالي الصغار فهم الأجمل والأخف ظلاً وليسوا بأشقياء أبداً، إلا عندما تؤلمهم معداتهم، وهذا أمر معتاد في عمرهم هذا».

وهكذا أخذت كل أم تتحدث عن أطفالها، وكان الصغار يتحدثون أيضاً، ويستخدمون مقصاتهم الصغيرة الموجودة في ذيولهم ليشذبوا بها شاربي خنفس الروث. «إنهم هكذا ولا يمكن أن يبقوا ساكنين ـ هؤلاء الأشقياء». قالت الأمهات ذلك وهن يفضن بحب هؤلاء الصغار. لكن ذلك ضايق خنفس الروث فسألهن إذا ما كان هذا المكان بعيداً عن أقرب مستنبت. قالت حشرة المقص: «الطريق إليه بعيد جداً، بعد المصرف. وأرجو ألا يذهب أحد من أطفالي إلى هناك: لأن في ذلك موتي».

«حسناً! سأحاول أن أبلغ ذلك المكان البعيد». قال خنفس الروث هذا ومشى دون أن يلقي كلمة تحية، ويدل هذا على أدب جم، أليس كذلك؟

وفي المصرف، قابل الخنفس عدداً كبيراً من أبناء جنسه، كلهم خنافس روث. قالت الخنافس: «هذا وطننا، وهو مكان مريح، نرجو أن تسمح لنا أن ندعوك للنزول إلى هذا الوحل الكثيف، فلابد أنك منهك من رحلتك». قال خنفس الروث: «فعلاً! فقد رقدت طويلاً في ذلك المفرش أثناء المطر، والنظافة تضايقني إلى حد بعيد. ولقد أصبت بالروماتيزم في مفصل جناحي من طول الوقوف في تيار الهواء تحت تلك القطعة الفخارية. كم هو مريح أن أكون بين بني جنسي».

سأله كبيرهم: «هل أنت من أهل المستنبت؟» رد خنفس الروث: «بل من مكان أرقى من ذلك، أنا آتٍ من اصطبل الإمبراطور حيث ولدت بأحذية ذهبية، وأنا مسافر في مهمة سرية، ولكن إياكم أن تسألوا عنها، فلن أبوح بشيء».

بعد ذلك زحف خنفس الروث نحو الوحل الكثيف، وهناك كانت تجلس ثلاث شابات من خنافس الروث، كن يكتمن الضحك حين لم يجدن كلاماً يقلنه. قالت أمهن: «لسن مخطوبات». عندها ضحكت الشابات ثانية ولكن حياءً هذه المرة.

قال خنفس الروث الرحال: «لم أر أجمل منكن في اصطبل الإمبراطور».

«لا تفسد بناتي! ولا تتحدث إليهن إلا إن كان قصدك شريفاً، لكنك تحدثت معهن بالفعل، وأنا أبارك الزواج».

صاح الجميع: «مرحى!» وهكذا خطب خنفس الروث واحدة منهن. الخطوبة أولاً ثم الزواج، ولكن لم الانتظار؟

مضى اليوم الأول على نحو طيب، ومر الثاني ببطء، ولكن مع اليوم الثالث يكون على الواحد التفكير في طعام الزوجة وربما الصغار أيضاً.

قال الخنفس: «لقد أُخذت على غرة، وسأرد لهم المفاجأة».

وقد فعل، إذ تركهم ورحل. مر نهار كامل، ومرت ليلة كاملة، صارت الخنفساء الزوجة أرملةً. قال خنافس الروث الآخرون إن ذلك الخنفس الذي أدخلوه عائلتهم كان متشرداً لا خير فيه، فقد ترك زوجته وأصبحت الآن عبأً على العائلة. قالت أمها: «في هذه الحالة يمكن أن تبقى مع أخواتها وكأنها عذراء، العار على ذلك النذل الشرير الذي هجرها».

في ذلك الوقت، كان الخنفس في الطريق، وقد عبر ماء المصرف فوق ورقة كرنب. وقبل الضحى، مر رجلان وشاهدا خنفس الروث، فالتقطاه وأخذا يقلبانه على كل جانب. كان كلاهما من أهل العلم، ولاسيما الشاب الذي قال: «يرى الله الخنفس الأسود فوق الحجر الأسود في الجبل الأسود، ألا يقول الدين ذلك؟» ثم ترجم اسم خنفس الروث إلى اللاتينية، وتحدث مع رفيقه عن سلالته وعاداته. لم يوافق العالم الأكبر سناً على أخذ الخنفس معهما إلى البيت، معللاً ذلك بأن

لديهما بالفعل عينات لا تقل عنه جودة. لم يكن من حسن الأدب أن يقول الرجل ذلك، كما قال الخنفس في نفسه، وبعدها طار من يده. طار الخنفس مسافة طويلة، حتى جف جناحاه. ثم وصل إلى المحمية الخضراء (الصوبة). كانت إحدى النوافذ قد تركت مفتوحة، فتمكن من التسلل للداخل والحفر في الأرض حتى وصل إلى مزيج الروث وأوراق الشجر الطازج، فقال: «هذا لذيذ».

وسرعان ما غلبه النوم فحلم أن حصان الإمبراطور قد سقط ومات، وتم منح «السيد» خنفس الروث حذوات الحصان الأربعة مع وعد بحذوتين أخريين. «كم كان ذلك ممتعاً!» بعد ذلك استيقظ خنفس الروث، فزحف خارج التربة، ونظر إلى أعلى، «ما أروع جو الصوبة! فالنخيل الباسق يمتد إلى أعلى يتخلله ضوء الشمس، وتحته تنمو الخضرة الكثيفة، والزهور التي تتألق بالحمرة مثل النار، والصفرة كالعنبر، والبياض كالثلوج المتساقطة حديثاً».

قال خنفس الروث: «يا لها من مجموعة نباتات ضخمة، كم ستصبح شهية عندما تبدأ في التعفن، إنها خزانة طعام عظيمة. أتوقع أن أجد بعضًا من أبناء جنسي يعيشون هنا. سأذهب للبحث عنهم وأرى إن كان بينهم من يمكن أن أخالطه: فأنا لدي كبريائي، نعم لدي كبريائي». ثم أخذ يمشي في المكان وهو يفكر في حلمه عن الحصان الميت والأحذية الذهبية التي فاز بها.

وفجأة، التقطت يد ما خنفس الروث، وضغطت عليه ولوته وقلبت فيه. كان ابن البستاني الصغير وصاحبه في الصوبة، فشاهدا الخنفس وأخذا يلهوان به ثم وضعاه في ورقة عنب ثم في جيب سروال أحدهما، حيث أخذ يتلوى، لكن الصبي ضغط عليه بيده، ثم أسرع بالذهاب إلى البحيرة الكبيرة في طرف البستان، وهناك وضع خنفس الروث في نعل حذاء خشبي مكسور، وربط به عصا كأنه صار، وقام بتقييد خنفس الروث فيه بخيط صوفي، فهو الآن قائد مستعد للإبحار.

كانت بحيرة بالغة الاتساع، فظنها خنفس الروث محيطًا عظيمًا. أخذته المفاجأة حتى إنه انقلب على ظهره وهو يدفع بأرجله في كل اتجاه.

أبحر الحذاء الخشبي مع تيارات المياه، لكن حين كانت تبتعد «السفينة»، كان أحد الصبيين يشمر عن ساقيه ويدخل في المياه ويعيدها قرب الشاطئ. وعندما سحبت المياه السفينة مرة أخرى، نودي على الصبيين، وكان النداء جاداً، فأسرعا ليلبيا النداء تاركين الحذاء الخشبي، مجرد حذاء خشبي، فأخذ يبتعد عن الأرض كثيرًا. كان الأمر مخيفًا لخنفس الروث الذي لم يستطع الطيران لأنه كان مربوطًا في الصاري. حينئذ زارته ذبابة.

قالت الذبابة: «لدينا طقس رائع هنا، يمكن أن أستريح وأغمر جسمي بالشمس، فلديك مكان مريح للغاية».

«أنت تتحدثين وكأنك بلا عقل، ألا ترين أنني مقيد؟!»

«حسناً، لكني لست مقيدة». ثم طارت بعيداً.

قال خنفس الروث: «أنا الآن أعرف حقيقة الدنيا». إنها دنيا وضيعة، وأنا المخلوق المحترم الوحيد فيها. في أول الأمر حرموني من أحذيتي الذهبية، ثم اضطررت للنوم في مفرش مبلل، ثم وقفت في تيار هواء، وأخيرًا يفرضون علي زوجة. وعندما أخذت خطوة جريئة نحو العالم لأرى شكل الدنيا، وما ينبغي أن تكون عليه من أجلي، يأتي بشري أحمق ليلقيني في بحر متلاطم. يحدث لي كل هذا بينما يسير حصان الإمبراطور بحذوات ذهبية، إن هذا أشد ما يضايقني. ولكن لا يمكن توقع التعاطف في هذا العالم: فحياتي حافلة للغاية ولو أن هذا لا يفيد عندما لا يدري بها أحد، ولكن العالم لا يستحق أن يعرف، وإلا لمنحني أحذية ذهبية في اصطبل الإمبراطور، بل إنني حين منح الحصان حذوات ذهبية مددت أرجلي، لو كانوا أعطوني أحذية ذهبية لشرف بي الاصطبل، أما الآن فقد خسرني وخسرني العالم أيضاً، وانتهى كل شيء.

ولكن لم يكن كل شيء قد انتهى: إذ جاء قارب وبه بعض الفتيات.

قالت واحدة منهن: «هناك حذاء خشبي عائم». قالت الأخرى: «وهناك مخلوق صغير مقيد به». كان قارب الفتيات بمحاذاة الحذاء الخشبي تمامًا، فالتقطنه، وأخرجت إحداهن مقصاً صغيراً وقصت

الخـيط الصـوفي دون أن تؤذي خنفس الروث. وعندمـا وصلن إلى الشاطئ وضعته إحداهن في النجيل وقالت: «ازحف! ازحف! أو طر إن استطعت. فالحرية شيء رائع».

طار خنفس الروث مباشرة عبر نافذة مفتوحة في مبنى ضخم، وهبط منهكًا داخل شعر عنق جواد الإمبراطور الطويل الحريري، إذ كان يقف في الاصطبل الذي ينتمي إليه. تعلق خنفس الروث بالشعر، وجلس مكانه برهة وهو يستجمع نفسه. «ها أنا ذا أجلس فوق جواد الإمبراطور، امتطيه كفارسه. ماذا أقول؟ نعم، لقد بدأت الأمور تتضح الآن! هذه فكرة جيدة وصائبة أيضًا. فالحداد سألني لماذا منح الحصان حذوات ذهبية؟ الآن فهمت! من أجلي! منح الحصان حذوات ذهبية من أجلي».

امتلأت نفس خنفس الروث سعادة وقال: «إن السفر ينير العقل». كانت الشمس ساطعة وتنير الدنيا بجمال آخاذ. قال خنفس الروث: «الدنيا ليست سيئة في الحقيقة، بل كل ما عليك هو أن تعرف كيف تفهمها». نعم، كانت الدنيا رائعة. منح جواد الإمبراطور حذوات ذهبية لأن خنفس الروث سيركبه.

«الآن سأنزل إلى بقية الخنافس هنا، وأخبرهم بكل ما حصل لي، سأخبرهم بكل ما لاقيته من متع في رحلتي للخارج، وسأقول لهم إنني سأقيم في الوطن حتى تبلى حذوات الحصان الذهبية».

تطبيقات الحكاية

خنفس الروث مخلوق مستغرق في ذاته، يرفعها فوق قدرها، يدفعه طلب المنزلة العالية ويفضل أوهام تفخيم الذات على التعامل مع الحقائق. ولكننا لا نحصل على أحذية ذهبية بالاستغراق في الذات، ولا يمكننا بناء حياة عملية حقيقية على أساس من أوهام. فاللاعب المتميز يعي نقاط قوته وضعفه ويعي دوافعه وأهدافه ومحفزاته المعنوية. وليس الغرض أن نكبت كل النوازع التي تستحضر شخصية الخنفس؛ فلاشك أن تلك الطاقة وذلك الخيال يمكن أن يكون مفيداً للغاية، وإنما الهدف هو أن نواجه أنفسنا وواقعنا الحالي حتى يمكن أن نصل إلى التمكن الشخصي والمهني الذي نحتاجه للنجاح.

الخنافس المختالة

«ألست مثل ذلك الحيوان الضخم الذي يحتاج لمن يرعاه وينظفه ويعتني به ويطعمه ويسقيه؟»

إن الاستغراق في الذات هو أحد عيوب خنفس الروث، فهو لا يخالجه أي شك في أهميته. فهو حشرة صغيرة نرجسية أو مخلوق متمركز حول ذاته أو بالمصطلح النفسي «مغالٍ في تضخيم الذات».

وليست المغالاة في تقدير الذات هي أشد ما يعيب النرجسيين بل الحط من قدر الآخرين. فلا ضير عندما ينفخ الخنفس المستعلي نفسه ويتفاخر بأنه يأتي من اصطبل الإمبراطور: فنحن نفعل الشيء

نفسه عندما نذكر صلتنا بأرقى المدارس والشركات ال 500 الأعلى التي تذكر في مجلة «فورتشن»، حتى وإن كانت تلك الصلة ضعيفة. المشكلة أن الخنفس دائم الحط من شأن الآخرين: فهو يصر على أن الحصان عديم المنفعة لأنه لا يستطيع أن يطعم نفسه أو يسقيها، وأن رائحة الزهور في البستان لا عبير لها إن قورنت بنفحة من رائحة الروث، وأن الحفرة الرطبة غير مريحة إذا قورنت بحرارة الروث الرطبة. فالخنفس لا ينافس بالتفوق على الآخرين بل بتحطيمهم. ومثله، مثل النرجسيين جميعًا، لا يستخدم مواهبه الفريدة في الإبداع بل في التدمير.

وفي موقع العمل، يسعى النرجسيون نحو إثارة الإعجاب أكثر مما يسعون إلى إنشاء علاقات إنسانية، فهم يريدون سماع التصفيق لأفكارهم ولا يريدون أن يفحصها أحد، يريدون أن يكونوا على صواب، لا أن يتعلموا. يحبون أن يحمدوا عند النجاح ويلقون باللوم على الآخرين عند الفشل. فتراهم يقولون: «نجح المشروع الأخير لأني أنقذته» أو «لم يكن في تخطيطي أي قصور أو خطأ. لكنهم افتقروا إلى الشجاعة لتنفيذها كاملة»، حسب الموقف. فكأنهم يقفون لالتقاط صورة ولا يعملون حقاً.

وهناك مستغرقون في ذواتهم يعملون بجد، على خلاف الخنفس. وهؤلاء الناس معجبون بذواتهم تماماً، لكنهم لا يجدون مبرراً لتمزيق الآخرين، بل يستخدمون حافزهم الداخلي واستعلاءهم وقدراتهم الإبداعية استخداماً خلاقاً. وبالرغم من أن

هؤلاء الناس ليسوا نرجسيين بالمعنى المجرد للنرجسية، فإن عالم الإنسان (الأنثروبولوجيا) والمحلل النفسي مايكل ماكوبي صك مصطلح «النرجسيين المنتجين» ليصف حالهم.

و«النرجسيون المنتجون» يتمتعون بدافعية ذاتية وثقة بذواتهم كما أنهم مبدعون، ويدل المستوى المرتفع لأهدافهم على جرأتهم، وثقتهم هذه معدية، حتى إن الناس تلتف حولهم وينفذون خططهم. و عندما يتخذ النرجسيون المنتجون القرارات الصحيحة، فإن النتائج تكون مبهرة، أما إذا استولى الغرور عليهم بسبب ما يرونه من تأثيرهم الإيجابي، فإنهم يبدؤون في طلب المداهنة والنفاق ممن حولهم بدلاً من المصارحة بالحقائق بعدما يستولي عليهم يقين بأنهم لا يستحقون «الأحذية الذهبية» فحسب: بل إنها من حقهم. وربما ظنوا أن القواعد التي تنطبق على الناس العاديين لا تنطبق عليهم، بل إن القوانين التي تحكم من هم أدنى منهم في الأداء لا تعني لهم شيئاً. وعندما يبدأ النرجسيون المنتجون في اعتبار أنفسهم سادة الكون، فإنهم ينعزلون عن الواقع، أو يدخلون في مخاطرات جامحة باسم المؤسسة. ونتيجة لذلك، فعلى الرغم من نجاحاتهم السابقة الباهرة، فإن إخفاقاتهم قد تحدث دويًا أكبر.

إذا أردت أن تعرف فيما لو كنت تغالي في تقدير قدراتك أم تحط منها، حاول أن تكتب قائمة بنقاط قوتك ونقاط ضعفك، ثم اسأل بعض المخلصين من الأصدقاء أو الزملاء، ممن يعرفونك جيداً وتثق

بآرائهم أن يكتبوا قوائم مماثلة. وستكون المقارنة بين قائمتك وتلك القوائم اختبارًا جيداً لمستوى واقعية تقويمك لنفسك. إن الوعي بالذات صفة محورية في كل قرار مهني محكم.

ثمة مؤشر على صدق الوعي بالذات، وهو قدرة الفرد على أن يتحدث عن نقائصه بحريّة، بل وعلى اتخاذها موضوعًا للتندر والفكاهة. على سبيل المثال، كان واحد من أصدقائي يشير إلى نزوعه لتضخيم الذات بكلمة «نابليون». مثال آخر، قضى أحد أساتذتي عطلة نهاية الأسبوع يقامر في لاس فيغاس، ووصف لي تجربته هذه بأنه «كان ينفث عن الملك بداخله» مثل هذه الفكاهة نراها في الكاتبة آشلي بريليانت عندما تغمز إلى نزوعنا للتمركز حول الذات باختيارها لعناوين كتب مثل «قدروني الآن وتجنبوا الهجوم» و «كل ما أريد هو فراش دافئ» و «كلمة طيبة وسلطة بلا حدود».

الخنافس الساعية للمكانة

لن أسأل مرة ثانية أبداً «قال خنفس الروث ذلك بعد أن سألهما بالفعل ثلاث مرات دون أن يجد إجابة»

ثمة عيب آخر في الخنفس وهو حاجته غير المحدودة للمكانة. فالخنفس مهووس بالأحذية الذهبية: فهو يطمع في الحدوات الذهبية. في كتاب «المدفوع» Driven يصف بول لورانس ونيتين نوريا، وهما أستاذان في كلية التجارة بجامعة هارفارد، هذه الرغبة بأنها السعي إلى المزيد من «الاكتناز». ويشير بحثهما إلى أن لدينا دافعاً

داخلياً للارتباط بالآخرين للتعلم والدفاع، إضافةً إلى نزعة الاكتناز هذه، وهذا أحد التحديات التي تواجهنا ـ نحن البشر ـ نظرًا لتعارض هذه الغرائز أحياناً.

لا يهم الخنفس سوى الذهب والمكانة وهو يصر على الدفاع عن أهميته المتصورة: فدوافع الارتباط بالآخرين والتعلم عنده مهملة. فهو لا يهتم بالعلاقات الدائمة، ولو مع أبناء جنسه، ولا يهتم بالتعلم أيضاً. هذا النوع من الأفراد ـ أحادي البعد ـ غالبًا ما يتمسكون برؤيتهم للحياة تمسكًا يصل إلى حد التصلب ويرفضون كل رؤية أخرى. على سبيل المثال، من كان التنافس شغلهم الشاغل كثيرًا ما يخاطبون زملاءهم من «الحساسين» و «العاطفيين» بتعبيرات مثل: «استيقظوا وشموا رائحة القهوة». (أي كونوا واقعيين) وهم يتهكمون على الاختلاف والتعاون ويرددون القول بأن هذه الأفكار لا تصلح «للعالم الحقيقي». أما الملتزمون أحاديو البعد فغالبًا ما يرون التنافس بدائيًا والتعاون علاقة أشد رقيًا. ويشعرون أنهم أرقى درجة من زملائهم أصحاب الطموح، إذ يتصورون أنهم سفاحون، أنانيون، محدودو الفكر. وتراهم يقولون لنفرض أن اللاعبين التنافسيين سيحققون النتائج المنشودة في هذا الشوط، ماذا عن الأخلاق والروح المعنوية؟ فعلى الأقل عندما يخسر المهذبون يخسرون بشرف.

عندما نكبت دوافع معينة في الآخرين، فإننا نبعد أنفسنا عن تلك الدوافع. فإذا فعلنا ذلك قطعنا صلتنا بجزءٍ من قدراتنا البشرية وإمكاناتنا. وتكون النتيجة أننا نتعرض للخطر، لأن مكان العمل اليوم

دائم التغير، ولا تكفي فيه الميزة التنافسية وحدها أو الميزة التعاونية وحدها: بل إننا نحتاج لكل هذا، نحتاج لأن نأخذ من الدوافع الأربعة جميعًا حتى نكتسب «ميزة التكيف»، كما نحتاج لأن نقيّم نقاط قوتنا وضعفنا بإخلاص كما ذكرنا عند مناقشة النرجسية، كما أننا نحتاج لأن نفهم دوافعنا. ما الذي يسعدنا؟ ما الذي يبعث الحيوية فينا؟ ما الذي يدفعنا لأن نبذل قصارى جهدنا؟ بهذا الفهم وحده يمكننا أن نخلق حياة عملية ذات معنى.

الخنافس العدوانية

«إنها إهانة، لهذا فأنا خارج للعالم الواسع»

رد الحداد: «أسرع بالرحيل» قال الخنفس: «متسلط!»

وكأن الخنفس تعوزه العيوب، فأضاف إليه العجز عن التحكم في مشاعره: فعندما يحصل الحصان على الحدوات الذهبية يحسده عليها الخنفس، ويأكله الحسد. ويزيد هذا الغليان الانفعالي سوءًا أن الخنفس نرجسي لا يرى عيوبه ولا فضائل الحصان. و يعتبر الخنفس مكافأة الحصان ظلمـاً، ويرى أن له الحق في أن يغضب، وهنا يلف القصة بخيط من السلبية. فبينما يظن أن سلوكه العدواني الاستعدائي المشاكس من علامات القوة، فإنه لا يظهر إلا ما تحته من ضعف.

مثلنا مثل الخنفس، فإننا نغضب عندما لا تسير الأمور على هوانا. عندما يلهبنا الظلم أو نتعرض للضغط، فإننا قد نتهور ونهاجم، ونشعر بالإهانة لأسباب وهمية، وننفجر. فإذا لم ننفس عن غضبنا فإننا

«نبتلعه»، ونصبح نافدي الصبر ويسهل استفزازنا، ثم نبحث عن مضادات الحموضة لنهضم كل هذا.

إذا أردنا أن نكون لاعبين أقوياء في هذا الاقتصاد دائم التطور، علينا أن نفهم مشاعرنا. ما الذي يطلقها؟ وكيف تظهر؟ و ما أثرها في الآخرين؟ وهل نريد أن نتحكم فيها بشكل أفضل؟ مرة أخرى، يساعد حسُّ الفكاهة على تحقيق ذلك. من هذا أن أحد الزملاء السابقين كان يسهل على نفسه مناقشة نوبات غضبه النادرة والعاصفة في آن واحد، فكان يشير إليها بعبارة «توأمه الشرير».

كثيراً ما نحتاج إلى تهدئة بعض انفعالاتنا، ولكننا نحتاج إلى تنشيط انفعالات أخرى. وأشير هنا مثلاً إلى كثير من الرجال الذين تربوا على كبت مشاعرهم الرقيقة، وإلى كثير من النساء اللاتي تربين على كبح طموحهن، ومن ثم على الجميع أن يحددوا فضاء مشاعرهم. فإذا استطعنا أن ننفث في الحياة ما كبتناه من مشاعر، فربما حققنا قدرًا أكبر من التوازن الانفعالي وكنا أقرب إلى الكمال الوجداني وأكثر تحكماً.

الخنافس الواعية بذاتها

«عندي كبريائي، وهذا كبريائي»

تعاني خنافس الروث الذين يعيشون بيننا عجزًا مذهلاً عن رؤية نقائصهم. فعندما ينجحون، لا يرون سببًا لأن يتغيروا، وعند الفشل يقع اللوم على الآخرين. وأحياناً يفرض الواقع نفسه ويضربهم على

رؤوسهم، ربما يأتي ذلك على شكل مرض خطير أو حادث أليم جدًا، أو رد فعل غير متوقع من الآخرين. وثمة رد فعل رقيق تعلم منه متسابق الدراجات الشهير لانس أرمسترونغ درساً قيماً، يصفه في كتابه «ليس موضوع الدراجة». ففي بداية حياته الرياضية في المضمار الأوروبي، كان عدوانيًا عالي الصوت، ولا يستحي، وكان هذا القادم من تكساس يفخر بذلك. لم يكن بحاجة «للارتباط» بجماعة ممارسي سباق الدراجات الأساسية: فقاطعه زملاؤه في اللعبة لهذا السبب وعزلوه، واضطروه إلى خفض سرعته، واستنفدوا طاقته وأضعفوه بأن ينطلقوا بقوة بجواره فكان يضطر إلى مجاراتهم، ولكن لم يؤثر فيه شيء من ذلك.

كان أرمسترونغ يوجّه الإهانات حتى إلى الدرّاجين ذوي المكانة، كما فعل ذات يوم وهاجم رئيس ممارسي سباق الدراجات الإيطالي مورينو أرجنتين وتحداه. سأله أرجنتين وهو مأخوذ بالمفاجأة «ماذا تفعل هنا يا بيشوب؟» وكان يظنه متسابقاً أمريكياً آخر. استفز أرمسترونغ أن الإيطالي لم يكن يعرف اسمه، وبعد عدد من الكلمات البذيئة قال له «اسمي لانس أرمسترونغ، وستعرفه جيدًا في نهاية هذا السباق». فقد كان مزهوًا بنفسه كالخنفس تمامًا، غاضبًا وتلهبه رغبة الفوز. لكن فمه كان أكبر من قدراته: فقد خسر هذا السباق.

بعدها بأيام كان أرمسترونغ يشترك في سباق مدته يوم واحد، وكان هذا يناسب أسلوبه العجول العدواني، ولأن جلده كان رقيقاً كالخنفس، لم يكن أرمسترونغ قد نسي «الإهانة»، فتبع أرجنتين مرة

أخرى. وفي الأمتار النهائية كان أرمسترونغ متقدمًا على المتسابقين الثلاثة الذين يجرون بدراجاتهم حوله ومن ورائه أرجنتين. رأى أرجنتين أنه لن يفوز، لكنه لم يرد أن يخسر أمام الأمريكي المتبجح: فقام قبل خط النهاية ببضع أقدام بإيقاف دراجته فجأة وربط عجلاتها بقفل، حتى يؤكد أنه سيكون في المركز الرابع إذ لم يشأ أن يقف إلى جوار أرمسترونغ على منصة التتويج. ولم يكن أرمسترونغ يتصور أن يفعل الرجل ذلك. «كان أرجنتين بفعله هذا يقول إنه لا يحترمني، وكان ذلك شكلاً راقيًا وغريبًا من أشكال الإهانة كما أنه مؤثر للغاية». أكسب الحدث أرمسترونغ تواضعًا وعلمه أن يعمل مع الجماعة وليس ضدها، ففي هذا استخدام أكثر ذكاءً للطاقة.

فيما بعد، سيعلم مرض السرطان أرمسترونغ دروسًا أشد قسوة عن القوة والتواضع والصبر. ولكن بينما تهذبت جوانب حادة في شخصيته، ظلت طبيعته التنافسية الشرسة على حالها. وكان ذلك من حسن الحظ. فقد اعتمد أرمسترونغ على مجموعة أوسع من القدرات، حولته من مجرد درّاج إلى رياضي عظيم فاز ببطولة فرنسا بعدد مرات قياسي.

ينبغي استخدام التغذية المراجعة (أو رؤى الآخرين لنا) في جعل أدائنا أكثر تكاملاً وقوة، ولكننا بدلاً من ذلك كثيرًا ما نستخدمها لترويض الناس وصبهم في قالب مؤسسي سابق التجهيز. وأرى أن ذلك خطأ. فإذا كان لي أن أعطي الخنفس تغذية مرتدة، كنت سأشجع خياله المدهش، وتركيزه الشديد على شيء واحد، ولاسيما

موهبة الارتقاء عنده. ولكن كنت سأنصحه بأن يكف عن إهدار هذه الطاقة الكبيرة على الأوهام وأن يواجه عدداً من الحقائق الأساسية. ولكني لن أسعى إلى تحويل الخنفس إلى مخلوق مستأنس منتحل مشاعر غيره يتمدد على أريكة ويأكل الحلوى في استرخاء. بل أريده أن يفعل ما فعله أرمسترونغ: أي أن يُحسِن توجيه طاقته غير الناضجة، ويوظفها مع غيرها حتى تصير أكثر قوة. ويمكن للمرء أن يكون واعيًا بذاته ومتفاخرًا في الوقت نفسه.

ولكن ليس ضروريًا أن يخفف كل الناس من طاقاتهم العدوانية الغاضبة، كالتي لدى الخنفس. فبعضنا يحتاج أن يفتح لها باباً أوسع، وهم أولئك الذين نشؤوا في مجتمعات تقليدية حيث يتم نزع أنيابهم وأظافرهم وينشؤوا على التهذيب.

الخنافس المكبوتة

«فإن كان ذلك لا يسعد الواحد منا، فإنه بالتأكيد لا يحب وطنه»

في مسقط رأسي لم ننشأ على الخيلاء، وكنا نعتبر العدوانيين وأصحاب الطموح أنانيين ومعتدين ويسببون الأذى لمن حولهم. وكان السعي وراء المكانة والمنصب غرورًا بائسًا وكان الحسد علامة لعدم النضج. فكنا نفضل التعاون على التنافس، والتكاتف على العمل الفردي، وبدلاً من التطلع إلى من سيحتل المركز الأول كنا نراعي بعضنا بعضاً، وبدلاً من توقيع العقود كنا نتصافح، كنا نأتمن بعضنا بعضًا لأننا كنا نلعب بالقواعد نفسها. يعرّف الدنماركيون هذا «بقانون

يانتـه»، وهـي إشـارة إلى مدينة يانته الخيـالية في رواية لـلأديب أكسـيل ساندي‌موز. ويحوي القانون عشرة معاييـر ضمنية، منها «إياك أن تعتقد أنك خير منا» و«إياك أن تعتقد أنك أعلم منا».

بالرغم مـن أن سـانديمـوز لم يكتب عن قـانون يانـته إلا عـام 1933، فإن هذه القـواعـد العـرفيـة كانت مـوجـودة قـبل ذلك بزمن طويل، وكـان هـ. ك. أندرسون على وعي بها. وقـد سـافر أندرسـون كثيـراً حتى يهرب من ضغـوط الالتـزام بهذه الأعـراف. وكـان يحـرص علـى ذكـر الاهتـمـام الذي حظي به في ألمانيا خاصة، ولكن الطبقة البـرجوازية لم تـرد له أن يظهـر كل هذا الإعـجـاب ببـلاد أجنبـيـة: لذلك أخـذ بعـضـهم يشـكك في وطنيته، وفي ذلك تحـذير شبـه صريح ليكف عن السـفر. جـرح الهـجوم أندرســـون لـكن رده جـــاء فـي حكـاية «خنفس الروث»: إذ وضـع كـــلام مـواطنيـه المغـرورين على لسـان الضـفـدعين المتـعـصـبين. ففـي القـصـة يسـمع خنفس الروث الضـفـدعين يمتـدحـان صـبـاحًـا مطيـرًا بائسًـا، ويتسـاءلان إن كـان العصـفور قـد وجد في أي رحلة من رحـلاته الكثيـرة للخـارج منـاخًـا أفضل مـن هذا. ويؤكـد الضـفـدعـان أن من لا يقـدّر هـذا الطقس المطيـر الرائع، فإنه بالتـأكيد لا يحب وطنه. وكـانت هـذه طريقـة راقية سوّى بها هـ. ك. أندرسـون حسابه معهم.

تعلمت ، مثل كل الدنمـاركيين، أن أخفّض من حدة طموحي ونزعـاتي العـدوانيـة، إلا أنـنـي كنت أسـتـمـتـع بهـا فـي الآخـرين. علـى سـبـيل المثـال، عملت مـرة مع عدد من الزمـلاء من أصحاب الكفـاءات النـادرة والذوات المتضـخمـة جـدًا. كان لأحـدهم مواقـف أكثـر طرافة من غيـره، مـصـدرها

طريقته في تفخيم الذات التي كانت تنم عن لحظات خاطفة من الوعي بالذات، وكانت رسائله الإلكترونية تضحكني. وبينما الجزء «المهذب» منّي كان يشعر أنه يتصرف بحماقة، كان الخنفس المكبوت بداخلي يستمتع بتلك الوقاحة. وأظن أن مدينة نيويورك تأسرني للسبب نفسه. فلأن هذه المدينة نصّبت نفسها «حاضرة الدنيا»، فهي مدينة طموحة متغطرسة، ويفخر أهلها باتجاههم نحو الآخرين والذي يلخصه السؤال المتحدي: «ألك اعتراض على ما أفعل؟» ولكن لماذا أعيش ذلك في الآخرين؟ لماذا لا أعلن عن هذه الطاقة الكامنة بداخلي؟ كان جزء من خوفي أن يطغى هذا على شخصية «المهذب» داخلي. فهل يمكن أن ألعب بطاقات طموحة وعدوانية بطرق لا تضر تقديري لذاتي وتناسب صورتي عن ذاتي في الوقت نفسه؟

أما مع تجربة الطموح فقد كنت محظوظة في أن دخلت بها دنيا الأعمال الأمريكية. فما كان يثبط صار يشجع فجأة، وما كان نقطة ضعف صار فضيلة. وفيما يتعلق بتجاربي مع الغضب، كنت محظوظة فيها لأني تزوجت إسبانياً. ففي وطني كان الجميع يؤمنون بأن التعامل الصامت من علامات استثارة المشاعر، ولكني عندما استخدمت الصمت العقابي مع زوجي الذي نشأ في البحر المتوسط، لم يأتِ معه بنتيجة: إذ لم يلحظ ذلك قط، بل وكان يظن أن صمتي يعبر عن صفة الهدوء عندي. كان أمرًا غريبًا عليه، لكنه رحب به. وحتى أُحسن التواصل معه تعلمت أن أعبّر عن سخطي على نحو أقوى، وكان الأمر

مـرهـقـاً في أول الأمـر. لكنني في النهـاية شـعـرت أن ذلك منافٍ لشخصيتي واستقر الأمر على أن أعبّر عن استيائي على نحو واضح وقوي وهادئ في الوقت نفسه.

ولابد لي من توضيح هذه النقطة، فأنا لا أدعو القراء الذين تربوا على «التهذيب» لأن يكونوا سيئي الطبع، بل أقول إننا يمكن أن نستفيد من طاقاتنا المهمشة، وندمجها في ذواتنا حتى نصبح أكثر اكتمالاً. ويمكن أن نكون مهذبين ونلعب لنكسب.

واقع العامل الحر

«الحرية شيء رائع»

إن نسج الحكايات حقيقة في حياتنا، ابتداءً من المقابلات الشخصية حتى التقارير السنوية، فنحن لا نقدم إلا روايتنا للحقيقة. ولكن ينبغي أن يوضع الأمر في مكانه: أولاً واجه الحقائق ثم أضف اللمسات الإبداعية التي تضع الصورة في إطار جيد. فالفرق بين حكاية محكمة النسج وما يقوم به الخنفس ومن شابهه من خداع للذات هو الفرق بين استخدام الحقائق وإنكارها.

يسأل الحداد في بداية القصة: «لماذا يحصل الحصان على حذوات ذهبية؟» ولكن الخنفس يرفض التعامل مع الحقائق، فينكر فضائل الحصان، ويضخم من فضائل نفسه. تلي ذلك سلسلة من المغامرات، كان من شأنها أن تعلم الخنفس الشيء الكثير عن نفسه وعن العالم.

وبدلاً من أن يعدّل صورته عن ذاته: فإنه يشوه الواقع (يخلق وهماً) حتى يتسق مع فكرته عن نفسه.

إن واقع مكان العمل في وقتنا هذا يتضمن عمليات تقليص حجم النشاط أو المؤسسة، أو استجلاب العاملين من مؤسسات أخرى، أو الاستعانة بعاملين من خارج البلاد، فمن الغباء إذن التمسك بأوهام الوظيفة الدائمة والمسار الوظيفي المنتظم. ولابد أن نقبل بأننا عاملون أحرار يأتي ضماننا الوحيد من امتلاك هوية مهنية قوية متطورة، أي علامتنا التجارية الفريدة. يؤكد توم بيترز في كتابه «إعادة التصور» على وجود ثلاثة عناصر رئيسية لخلق هذه العلامة الحرفية القوية: التمكن، وخلق شبكة عمل، والتسويق.

إن التمكن هو جوهر تفرد علامتنا، فجواد الإمبراطور لم يحصل على الحدوات الذهبية لمجرد أداء مهام وظيفته: بل لأنه ألقى بنفسه في خضم المعركة وأدى أداءً متميزاً، لم يكن هذا مجرد تعبير عن الكفاءة، بل كان أمراً استثنائياً. و نحن كذلك علينا أن نتقن شيئاً يقدّره الآخرون ويدفعون لنا مقابله، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بالتعلم الدائم، وبتطوير حرفتنا و سجلّنا المهني.

وقبل ذلك، علينا أن ننشئ علاقات تفوق ما فعلناه من قبل. فإن خنفس الروث قيّد نفسه بجماعة الخنافس كما نفعل نحن عندما لا نخرج عن إطار علاقات المؤسسة التي نعمل بها. صحيح أننا نحتاج لعلاقات قوية مع رئيسنا وزملائنا لكن هذا لا يكفي؛ فإننا نحتاج إلى

علاقات مهنية واسعة تمتد خارج تخصصاتنا، بل إننا قد نحتاج إلى شبكة علاقات دولية في ظل الاقتصاد الكوكبي. وكلما زاد من يعرفنا ويعرف ماذا نفعل، زادت الخيارات المتوفرة لدينا وزادت قدرتنا على تجاوز العثرات.

وأخيراً، يحتاج كل منا إلى أن ينزل نفسه منزلة عالية، وأن يرقي نفسه باستمرار، فما العلامات التجارية إلا قصص وحكايات، ولأن كل واحد منا هو راوي قصته: فإنه يستطيع أن ينسج أسطورته الخاصة. ولكننا لا نحقق المكانة الأسطورية بمجرد «قولنا» بأننا الأعظم: بل لابد من أن نصبح الأعظم. فعندما كان بطل العالم في الملاكمة للوزن الثقيل ـ محمد علي ـ في أوج مجده كان شخصية كاريزمية، يتجمع حوله أعداد كبيرة من الصغار والكبار: بل كان هذا البطل عبقرياً في رفع مكانته بين الناس. هذه التركيبة هي تركيبة الفوز، لم يخلق البطل محمد علي علامة عظيمة فحسب، بل تحول إلى رمز أسطوري. وكما كان محمد علي يقول والبريق في عينيه: «ليس الأمر تفاخراً أجوف إذا كنت قادراً على تحقيق ما تقول».

من بين العناصر الثلاثة، يحتل التمكن من الحرفة قلب علامتنا الفريدة. ولكنه لا يتم دون التحكم في الذات، ويقوم هذا التحكم على الوعي والاختيار. فلابد أن نكون على وعي بمواهبنا ونقائصنا الشخصية والمهنية، وكذلك دوافعنا وانفعالاتنا. وكلما زاد وعينا، زادت قدرتنا على التكيف والتصرف. هذا وحده هو الذي يتيح لنا حرية حقيقية في الاختيار، وعندها نتمكن بحق من اتخاذ قرارات صائبة.

وحتى نصبح «أبطالاً عالميين» في مجالنا، نحتاج إلى مدير شخصي على دراية دقيقة بمواطن تفردنا ومواطن تعثرنا، مدير يستطيع استغلال جوانب قوتنا ويختار لنا الأدوار العظيمة ويوجهنا حتى نقدم أفضل ما لدينا، مدير يعيننا على أن نزيد من تحكمنا في الذات و تمكننا المهني. وللأسف لا يمكن استئجار هذا «المدير الشخصي» لأنه يمثل الجزء الواعي داخل أنفسنا، ذلك الجزء الذي يمتلك المعرفة ويتخذ القرارات. ومع وجود هذا المدير الشخصي الكفء لن نكون بحاجة إلى الأوهام.

نقاط تستحق التفكير

- كيف تخلق جواً آمناً لا يخشى فيه الآخرون أن يعارضوا أفكارك وقراراتك؟
- متى كان آخر خطأ ارتكبته؟ وهل كان همك تعديل صورتك أمام نفسك؟

موضوعات تستحق أن تناقشها مع زملائك

- كيف نقوّض الرياء والمداهنة ونشجع المواجهة الصادقة للحقائق؟
- ما الدافع السائد في قسمك (الحصول على المزيد، أم الترابط، أم التعلم، أم الدفاع)؟
- وهل يختلف في ذلك مع الأقسام الأخرى؟ وإن كان مختلفًا، فكيف يؤثر ذلك في التعاملات بين الأقسام؟



4

حكاية

القزم عند البقال

«عندما نتخلى عن الوهم نعرف حقيقة أنفسنا»



القــزم الأسـطوري طـوله حـــوالـي ثلاثـة أقـــدام، يرتـدي قلنســـوة مخـروطية طويلة ويحـرص على أن يبقى بعيدًا عـن الأنظار. وبالفعل لم يره أحـد. مع ذلك، كان الأطفـال الدنماركيون يـعتبرونه حقـيقـة لا شك فيهـا، فكل مـزرعـة لهـا قـزمـهـا. فـإن أحسـن صاحـبـهـا مـعـاملتـه، عمَّها الخيـر. ولا يطلب القزم مقابل ذلك أكثر من طبق عصيـدة ساخن (من الأرز المرشوش بالسكر والقـرفة وفوقـه قطعة كبـيرة من الزبد) في ليلة عيـد الميـلاد من كل عـام. ولكن على الأسـرة ألا تحـاول اختـلاس النظر إليه، وإلا سيُجن جنونه وينتقم منهم.

وقزم حكايتنا مخلص لصاحب البـيت، وبه فضـول وشقـاوة. وعندما ينتبه هذا المخلوق الصغير العملي إلى عالم الأفكار، ينبهنا نحن القراء إلى ضـرورة إعـادة النـظر في حـاجـتـا إلى الملكيـة الشـخـصـيـة، وإلى الشعر. حاجتنا إلى غذاء البطن وغذاء العقل معًا.

وبينمـا تقرأ الملخص التـالي ـ أو الحكاية الكاملة إن شئت ــ أدعوك للتفكير في هذه الأسئلة: ما الذي ترى أن له قيمة في حياتك العملية داخل متجرك؟ مـا الذي يعجبك في تلك المسـاحة الهـادئة التي تبعث على التأمل في المخزن العلوي؟ هل تحرص على الاثنين؟

ملخص الحكاية

لم يكن الطالب يملك شيئاً. وكان البقال يملك البيت وكل ما فيه، ويمكن أن يقدم عصيدة عيد الميلاد، لذلك لازمه القزم.

ذات مساء أتى الطالب إلى البقال ليشتري جبناً، اكتفت زوجة البقال بإيماءة من رأسها كتحية مساء للطالب وهو يخرج من الدكان، كان يمكنها تحيته بأكثر من مجرد إيماءة برأسها، فقد كانت تتمتع بلسان ثرثار. لكن اهتمام الطالب انصرف إلى الورقة التي لفت بها قطعة الجبن، وكانت منزوعة من كتاب شعر قديم. عرض البقال أن يبيع الطالب ما تبقى من الكتاب، ودفع الطالب قطعة الجبن ثمنًا للكتاب الممزق. وقال الطالب إن تمزيق مثل هذا الكتاب حرام، وأضاف ساخرًا: «إن ما يعرفه البقال عن الشعر لا يزيد عما يعرفه البرميل الذي تلقى فيه الصحف القديمة». واعتبر القزم ذلك قولاً لا أدب فيه.

وفي الليل استعار القزم موهبة الثرثرة من زوجة البقال، وكان كل شيء تُبثّ هذه الموهبة فيه يكتسب قدرة زوجة البقال على التعبير عن نفسها. وقد بدأ بالبرميل وسأله: «هل أنت حقاً... لا تعرف ما الشعر؟» فقال البرميل: «بل أعرف طبعاً، إنه الشيء الذي يكتب في ذيل صفحة الجريدة». كان البرميل يعتقد أن بالجريدة من الشعر أكثر مما يظن الطالب. وكان ذلك رأي كل الأشياء الأخرى في الدكان، ولابد من احترام ما تتفق عليه الأغلبية.

بعدها صعد القزم إلى غرفة الطالب ليلقنه درسًا. ولكنه حين اختلس النظر من ثقب الباب، وجد الطالب يقرأ في الكتاب الممزق، ووجد الغرفة مليئة بصور مدهشة وأنغام جميلة. قال القزم: «هذا شيء رائع! أظن أنني سأبقى مع الطالب». لكنه تذكر أن الطالب لا يستطيع توفير العصيدة ، فعاد ونزل إلى البقال.

لكن القزم لم يعد قانعًا بما في الدكان من حكمة وذكاء، فكان كل ليلة يسترق النظر من باب غرفة الطالب ويملأ نفسه بإحساس الجمال. وعندما ينطفئ النور، كان يشعر بالبرد ويعود سريعًا إلى الدكان. وعندما حل عيد الميلاد وتلقى القزم عصيدته، قال القزم في نفسه: إن البقال خير الناس.

وفي إحدى الليالي، نشب حريق خطير في الشارع وجرى كل الناس لينقذوا أغلى ما عندهم: أخذت الزوجة قرطيها، وأخذ البقال صكوكه، وأسرع القزم إلى العلية، فوجد الطالب يقف إلى جوار النافذة يشاهد النيران على الجانب الآخر من الشارع، خطف القزم الكتاب واندفع إلى الخارج نحو سطح البيت. تبين للقزم حبه الحقيقي: إذ عرف الآن ما يحبه حقاً. لكن عندما تم إطفاء الحريق، هدأ القزم وفكر وقال في نفسه: «لا أستطيع أن أترك البقال لأجل العصيدة»: لذلك قرر أن يكون مع الاثنين: الطالب والبقال.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... يشترك قزم حكايتنا في بعض الصفات مع غيره من المخلوقات الخرافية الصغيرة الأخرى مثل الجنية المشاكسة، البيكسي، والقزم «نوم» حارس كنوز الأرض، والهوبغوبلين، الغول المؤذي أو البعبع، لكنه لا يوجد إلا في الأدب الشعبي الاسكندينافي. ويعتقد أن هذا القزم يقيم في المزارع، فإذا رضي عن أهل مزرعة ما باركها بالذرية والصحة، والمحاصيل الوفيرة والغنى (تماماً مثل آلهة الموقد في الديانات الوثنية الأخرى). وهكذا كان يقال عن المزارع الثري إن قزمه راضٍ عنه. وكان القزم في المقابل ينتظر أن يعامل باحترام وأن تقدم له هدايا من الطعام على نحو منتظم.

كان القزم يصور على هيئة مزارع من القرون الوسطى، له لحية رمادية وملابس رمادية وقلنسوة حمراء مخروطية. وهو مسن قصير القامة، ويقال إنه يدخن الغليون ويحب لعب الورق. وأكبر عون يقدمه القزم يخص الحيوانات، لكنه أحياناً يختصر الجهد لتحقيق الرخاء فيسرق من المزارع المجاورة. ولأنه عصبي المزاج، فإنه قد يغضب لأنفه الأخطاء. فإذا حدث هذا، تمرض الحيوانات، ويصير الحليب حامضاً، وتذبل المحاصيل. ولا يهدأ القزم حتى يرد الإساءة بمثلها.

ترد أول إشارة لهذا النوع من الأقزام في عام 1981 في أيسلندا، عندما تم طرد أحدها بتلاوة الصلوات ورش الماء

المقدس. ولم يزل كهنة الكنيسة يتعاملون مع «سكان المزارع» من الأقزام حتى القرنين السادس عشر والسابع عشر. فيبدو أن الناس، بالرغم من أنهم مسيحيون ويتلون الصلوات، فقد كانوا حريصين على رعاية قزمهم الخرافي... من باب التأمين والضمان عسى أن...، في القرن التاسع عشر، طرأ على هذا النوع من الأقزام تحول كبير، بدأ عندما قامت الجمعية الفنية الدنماركية في روما، وهي جماعة كان أندرسون يعرفها جيداً بسبب تعدد سفره إلى إيطاليا، باستخدام أشكال مقصوصة من الورق على صورة قزم للتزين في ليلة عيد الميلاد. ولم تمض بضع سنوات حتى شاعت هذه الصورة الجديدة التي يظهر القزم فيها أقصر وأسمن وألطف وأرق: بل وصار له زوجة. كما أخرجوه من مخزن الغلال وأسكنوه حجرات المعيشة الخاصة بالطبقة المتوسطة، حتى أصبح رمزًا لعيد الميلاد يشبه بابا نويل.

الحكاية الكلاسيكية

كان أحد الطلاب يسكن العليّة ولم يكن يملك شيئاً. وكان يسكن الطابق الأرضي بقال يملك البيت وكل ما فيه. وقد اختار القزم أن يكون مع البقال، وفي كل ليلة عيد ميلاد، كان يحصل على طبق كبير من العصيدة عليها قطعة ضخمة من الزبدة. وكان البقال قادراً على توفير ذلك للقزم: فبقي القزم في دكان البقال الذي تعلم فيه أشياء كثيرة. وفي إحدى الأمسيات دخل الطالب من الباب ليشتري شموعًا وجبناً، فلم يكن لديه من يأتي له بما يحتاج ودفع ثمنه. وأومأ البقال وزوجته بتحية المساء، على الرغم من أن الزوجة كان يمكنها أن تحييه بأكثر من مجرد إيماءة رأس: فقد كانت تتمتع بلسان ثرثار. أومأ الطالب ردًا على تحيتهما ثم وقف مكانه. إذ راح يقرأ في الورقة التي تلف الجبن، كانت منزوعة من كتاب قديم ما كان ينبغي أبدًا أن يمزق، كتاب قديم يمتلئ شعرًا.

قال البقال: «لازال عندي جزء كبير من الكتاب. فقد أخذته من عجوز ببعض حبات البن، فإن أعطيتني ثماني شلنات أعطيتك ما تبقى منه».

قال الطالب: «أشكرك، أعطني الكتاب وخذ الجبن، سآكل خبزًا وزبدًا دون شيء آخر. فحرام أن يمزق الكتاب كله هكذا. إنك رجل مهم، رجل عملي، لكنك لا تفهم الشعر إلا كما يفهمه ذلك البرميل».

كان ما قاله الطالب خالياً من الأدب، ولاسيما إهانته للبرميل. لكن البقال ضحك، وضحك الطالب، لأن ما قاله كان على سبيل الدعابة. لكن القزم ساءه أن يجرؤ أحد على توجيه كلام كهذا للبقال، الرجل الذي يملك البيت ويبيع أفضل أنواع الزبدة.

وفي الليل، عندما أغلق الدكان وذهب كلٌ إلى فراشه إلا الطالب، دخل القزم على الزوجة واستعار منها موهبة الثرثرة، إذ لم تكن تستعملها في أثناء النوم. وكان كلما وضعها على أي شيء في الغرفة، صار له صوت وتكلم معبرًا عن أفكاره بطلاقة كما تفعل زوجة البقال تماماً، لكن كان كل شيء يتكلم بعد أن ينتهي الآخر، وكان ذلك من حسن الحظ، وإلا تكلموا جميعاً في وقت واحد.

كان البرميل أول من وضع القزم عليه موهبة الثرثرة، وكان مملوءًا بالجرائد القديمة. سأله القزم: «هل صحيح أنك لا تعرف ما الشعر؟»

قال البرميل: «إنه شيء في ذيل الصحيفة، وغالبًا ما يقص منها. وأظن أن ما عندي من الشعر أكثر مما عند الطالب، وما أنا إلا برميل بسيط مقارنةً بالبقال».

ثم وضع القزم موهبة الثرثرة على مطحنة البن، التي بدأت بالكلام فورًا. ثم على مكيال الزبدة ثم درج النقود، واتفقوا جميعًا على رأي البرميل. وما تتفق عليه الأغلبية ينبغي احترامه.

«والآن ينبغي أن يفهم الطالب هذا». قال القزم ذلك وهو يسرع بالصعود على درجات سلم المطبخ إلى العلية التي يعيش فيها الطالب. كان الضوء يملأ المكان، اختلس القزم النظر من ثقب الباب ورأى

الطالب يقرأ في الكتاب الممزق الذي أتى به من عند البقال. كم كان النور ساطعًا من داخل الغرفة! كان شعاع من النور يصدر عن الكتاب وتحول الشعاع إلى جذع شجرة ثم إلى شجرة عظيمة نمت حتى صارت دوحة باسقة تنشر فروعها حتى ظللت الطالب. كانت كل ورقة فيها نضرة، وكل زهرة رأس فتاة رائعة الحسن، بعضهن ذوات عيون سود لامعة، وبعضهن ذوات عيون زرق صافية تخلب اللب، و كل ثمرة نجمة لامعة. وكان هواء الغرفة يعبق بأحلى الأغاني.

لم يكن القزم الصغير قد رأى أو أحس بمثل هذا الجمال بل لم يكن يتصوره، فظل واقفاً على أطراف أصابعه يتابع النظر من ثقب الباب حتى انطفأ الضوء في الغرفة. لابد أن الطالب قد أطفأ السراج وأوى إلى فراشه. لكن القزم الضئيل ظل في مكانه يستمع إلى الأغنية التي كانت لا تزال تترد في رقة ونعومة، وكأنها تهدهد الطالب الراقد على السرير حتى يستغرق في النوم.

قال القزم: «هذا شيء مدهش، لم أكن أتوقعه قط! أظن أنني سأبقى مع الطالب». لكنه فكر في الأمر بروية وقال وهو يطلق زفرة أسى: «لكن الطالب لن يوفر العصيدة». وانصرف المخلوق الصغير عائدًا إلى حيث البقال. كان ذلك هو القرار السليم. في ذلك الوقت كاد البرميل يستنفد كل موهبة الثرثرة لدى زوجة البقال، فقد ثرثر بكل ما كان مكتوبًا على أحد جوانب الصحف المخزنة فيه، وكان على وشك أن يتحول إلى جانب آخر، لكن القزم عاد وأخذ منه اللسان

الثرثار ورده للزوجة. لكن منذ تلك اللحظة أصبح كل ما في المخزن، من درج النقود حتى خشب الوقود، ينصت لآراء البرميل: فقد رفعوا مكانته ومنحوه ثقتهم إلى حد بعيد. حتى عندما قرأ البقال «المقالات النقدية عن الفن والمسرح» بصوتٍ عالٍ من جريدته المسائية، ظنوا جميعًا أن الصوت يأتي من البرميل.

لكن القزم الضئيل لم يعد بإمكانه أن يجلس ويستمع بهدوء لكل ما يقال من كلام الحكمة و الفطنة في الدكان. فما إن يظهر الضوء في العلية، حتى تجتذبه أشعته كأنها حبال متينة، فيجد نفسه مشدودًا نحو العلية ينظر من ثقب بابها. كان يتملكه إحساس بالرهبة، كالذي يتملكنا عندما نكون وسط أمواج المحيط العاتية و في أوج العاصفة حين يجتاحنا الشعور بوجود الله: وقد انفجر في البكاء وهو لا يدري ما الذي يبكيه، لقد كانت تلك دموع الفرح. كم سيكون الجلوس مع الطالب تحت تلك الشجرة رائعاً، ولكن لأن ذلك غير متاحٍ: فقد قنع بالنظر إليه من ثقب الباب. لم يزل القزم واقفًا في مكانه في الممر البارد، ورياح الخريف تهب من الباب المسحور (باب أرضية سطح البيت). كان الجو باردًا: بل شديد البرودة، لكن القزم الضئيل لم يلحظ ذلك حتى انطفأ الضوء في العلية، وخَفُت صوت الموسيقى حتى غاب في صوت الرياح. كاد القزم يتجمد من البرد، فعاد فورًا إلى ركنه الدافئ المريح. وعندما جاءت عصيدة عيد الميلاد وفوقها قطعة الزبدة الكبيرة، قال القزم إن البقال أهم الناس عنده.

وذات مرة، في وسط الليل، استيقظ القزم على أصوات جلبة شديدة: كان الناس في الخارج يتصايحون ويطرقون على شيش النافذة، وكان الحارس الليلي يطلق صفارته. فقد شب حريق كبير في الشارع كله. لم يكن القزم يدري أكان الحريق في البيت هنا أم في بيت الجيران؟ أين الحريق؟ وإلى أي حد وصل؟ كانت زوجة البقال مضطربة للغاية حتى إنها خلعت قرطيها ووضعتهما في جيبها، حتى تضمن إنقاذ شيء مما تمتلك. وجرى البقال ليأخذ صكوكه، وجرت الخادمة لتأخذ وشاحها الحريري، الذي ادخرت من أموالها حتى تستطيع شراءه. كان كل واحد يجري لينقذ أغلى ما لديه، وكذلك فعل القزم الصغير.

وبقفزتين سريعتين بلغ القزم أعلى الدرج ودخل غرفة الطالب الذي كان يقف في هدوء بجانب النافذة المفتوحة، ويتابع منها الحريق الذي نشب في الساحة في الجهة المقابلة من الشارع. جذب القزم الصغير الكتاب المدهش من فوق الطاولة ووضعه داخل قلنسوته الحمراء، وأطبق عليه بيديه الاثنتين، وهكذا أنقذ أغلى كنوز البيت. ثم اندفع خارجًا وصعد إلى سطح البيت حتى وصل إلى أعلى المدخنة. وهناك جلس و قد انعكست عليه أضواء البيت المحترق في الجهة المقابلة، وكانت يداه لا تزالان تطبقان بقوة على قلنسوته الحمراء حيث وضع الكنز. في تلك اللحظة عرف القزم إلى أين يميل قلبه، ولأي شخص ينتمي. ولكن بعد أن انطفأ الحريق، عاد إلى نفسه، وهدأ روعه وقال:

«سأوزع نفسي بين الاثنين! فأنا لا أستطيع الاستغناء عن البقال الذي يقدم لي العصيدة».

كان ذلك القرار بشريًا بكل ما تعنيه الكلمة! فكلنا نذهب إلى البقال من أجل العصيدة.



تطبيقات الحكاية

يستمتع القزم بما يجري في دكان البقال من نشاط. فالمكان يمتلئ بحركة التجارة وتبادل الأخبار والضوضاء. وأغلب أيام حياتنا تشبه الحياة في ذلك الدكان: إذ تملؤها الأحاديث والإثارة. يبدأ كل صباح بالحديث عن آخر الأخبار وآخر المعارك، وأخبار الفساد والتجارة والرياضة. وفوق ذلك كله، تخيّم صور الإعلانات على كل ما نريد أن نشاهده أو نرتديه أو نفكر فيه أو نشعر به أو نفعله.

هذا بالإضافة إلى أن كل من حولنا يطالبون بنصيب من وقتنا، وكثيراً ما تتعارض مطالبهم. فلابد أن نشتري بيتاً في إحدى الضواحي، ونحضر كل المباريات التي يشترك فيها الأولاد، كما ينبغي أن نكون جادين في أعمالنا، وأن نكون جزءاً من فريق عمل نصل به إلى قمة الأداء، ولابد أن نتحلى بالصراحة والود، وأن نكون بنّائين من قمة الرأس إلى أخمص القدمين.

وسط هذه الأصوات المتعددة العالية التي تتجاذب اهتمامنا يغيب صوتنا فلا نكاد نسمعه. ولن نسمعه إلا إذا حوّلنا اهتمامنا عن أصوات الآخرين وأنصتنا إلى الصوت الآتي من داخلنا.

تتيح لنا قصة القزم فرصة للتفكير في أسلوب حياتنا اللاهث وراء الاحتياجات المادية، والمتطلع إلى الحياة المثالية في آن واحد. فهل تتكامل النزعتان أم تتعارضان؟ وهل يمكن أن يدعم كل منهما الآخر و يثريه.

الحياة النشطة

«كان يسكن الطابق الأرضي بقال يملك البيت وكل ما فيه، واختار القزم أن يكون مع البقال»

لا ينطق الصوت العملي الموجود داخل رؤوسنا بكلام أجوف، فهو يطالبنا بأن نحصّل تعليمًا جيدًا، وأن نحصل على وظيفة جيدة ونحافظ عليها، وأن نحقق مستوى معيشة جيدًا، وأن نستمتع بالحياة الطيبة، هذا كل ما في الأمر: فالحياة ليست معقدة إذا استطعت أن تسيطر على فضولك الذي يشبه فضول القزم في حكايتنا.

وكالبقال تمامًا، يجد كثير منا حياته في حالة الانشغال الدائم «داخل الدكان». وأنا شخصيًا أعشق الجلبة التي تحدثها شركة في حالة نمو وتحديث، وأعشق نبض مدينة نيويورك السريع، وهي المدينة التي تجسد فكرة السوق المفتوح. فقد صار الدكان الكوكبي مفتوحًا طوال اليوم وكل أيام الأسبوع (24/7)، ولا يفصلنا عن الصفقة التالية ولا عن آخر الأخبار سوى ضغطة بسيطة على فأرة الحاسوب.

يستلزم التأهل لنزول ملعب العمل الكوكبي تعليمًا جيدًا، وتحصيلاً لمقررات تتلوها امتحانات. بعدها نختار شركة ذات سمعة طيبة نتعلم فيها المهارات الصحيحة ثم نتوجه لنصيب الهدف. وحتى يحدث ذلك لابد أن نغلف أنفسنا بالغلاف المناسب الذي يحمل العلامة الصحيحة، ونركب السيارة الصحيحة، ونسكن الحي الصحيح، وندخل أولادنا المدارس الصحيحة. وهكذا يبدو مسار الحياة مستقيماً ويبدو أننا نتحكم

فيه. ولكن، هل نحن نتحكم فيه أم أننا نتوافق معه فحسب؟ هل الحقيقة أننا نعيش بمبدأ الدكان: «ما تتفق عليه الأغلبية لابد أن يحترم؟»

عندما أسترجع الماضي يدهشني عدد الاختيارات التقليدية في حياتي. كان لابد أن ألاحظ أن حياتي تتخذ مسار حياة والدي وأقراني. فهل كنت أتخذ قرارات حرة فعلاً أم كنت أضبط نفسي على شروط ضبط لبرنامج معد سلفاً؟ مثال ذلك: إنني كنت منذ سنوات أشغل وظيفة مرموقة، كنت في حالة صعود وانطلاق، وانعكس نجاحي في صورة مقتنيات وممتلكات. وفجأة واجهت الصناعة التي يعمل بها زوجي حالة هبوط، ودفعت شركته تعويضات تسريح لموظفيها. كان زوجي قد فكر بالفعل في العودة للدراسة، فكانت هذه فرصة عظيمة للتغيير. وعندما قبلته كلية الحقوق في هارفارد، اعتبرنا هذا حدثاً يستحق أن ننتقل من أجله. فبعنا بيوتنا وسياراتنا وغسالاتنا ومجففاتنا وثلاجاتنا التي اشتريناها في كاليفورنيا، وانتقلنا من غرب البلاد إلى شرقها لنعيش في "عليّة" في كامبريدج بولاية ماساتشوستس.

وعلى غير المتوقع، أحببت حياتنا الجديدة. لم يكن لدينا حديقة أتعهدها ولا بيت ولا حمام سباحة يحتاج إلى تنظيف، ولا سيارات تحتاج إلى صيانة. وعندما كان أي شيء يحتاج إلى التصليح في شقتنا الصغيرة، كنا نستدعي مشرف الصيانة. شعرت أنني قد تحررت. وكم أدهشني أن أكتشف أن ممتلكاتنا أصبحت تملك أغلب أوقاتنا، بل إنني اكتشفت أنه حتى حلم امتلاك بيت لم يكن حلمي الشخصي.

كان ما اكتشفناه أساساً لحياة الطلاب التي عشناها بعد ذلك. وكلما شرعنا في الدخول في التزام مالي كنا نسأل سؤالاً مثل «هل نعيش بالقرب من سنترال بارك» (المنتزه الرئيس في المدينة) ـ وكنت أريد ذلك بشدة ـ أو نستمتع بالحرية المالية. وكانت الحرية تكسب كل مرة. نتيجة لذلك توفر لي ولزوجي الوقت للمشروعات الإبداعية، وهي شغفه بالموسيقى وتفرغي لهذا الكتاب. صحيح أن مستوى معيشتنا لا يرنو إليه أحد، لكن نوعية حياتنا رائعة.

المشكلة عند عدد كبير منا ليست في أننا نريد حياة طيبة: بل في أننا نقنع أنفسنا بأن تصورنا للحياة الطيبة يتطابق مع التصور الشائع للحياة الصحيحة. يحدث هذا عندما لا نقرأ إلا المنشورات التي تراعي مصالحنا ولا نشاهد إلا البرامج التي تؤكد ما لدينا من آراء. وفي النهاية، يصير الشعر مجرد ورق تلف به بضاعة وتظن المعلومات «حكمة» ولا نقول إلا الأشياء التي «يتفق عليها الغالبية».

وأنا على يقين من أن كثيراً من أخطاء العمل الفاضحة والسلوكيات المشينة التي تحدث في مكان العمل يمكن منعها إذا تعاون «البقالون» مع الطلاب الذين يعيشون بيننا، بالإضافة إلى الإنصات لنصائح كبار رجال الأعمال المحنكين. لابد أن نخصص من وقتنا قدراً نستكشف فيه المعضلات الأخلاقية في حياتنا اليومية، بكل معانيها، وهكذا لن تقتصر المناقشة على أعلى مستوى كفاءة يمكن تحقيقه بل على أقوم السبل الأخلاقية التي يمكن اتباعها.

حياة الفكر

«كان الطالب يسكن العلية، ولم يكن يملك شيئاً»

يفكر القزم بطريقة عملية لذلك ارتبط بالبقال، الرجل صاحب الأملاك. أما الطالب فيبدو رقيق الحال، لكن مع فقره يظهر وكأنه لديه كل ما يحتاج. وعندما يبادل الكتاب الممزق بالجبن، ليكتفي بالخبز والزبدة دون شيء آخر، يبدو سعيدًا بهذه المقايضة. ولأنه لا يهتم بالمال، يتوفر له الوقت للتفكير والغوص في أفكار عميقة واستكشاف المثل الإنسانية العليا، والتفكر في معنى الحياة.

عندما يصعد القزم إلى العلية، وهو عازم على تلقين الطالب درساً، فإنه يقف مشدوهًا أمام عالم الطالب المدهش. يجتاحه شعور بالسمو لا يجد كلمات تصفه. فما الذي يمكن أن يحدثه هذا الشعور من أثرٍ في حياة هذا المخلوق الصغير العملي؟ وما الذي أثّر في نفس القزم؟ هل هي قوة الصدق؟ أم الشجاعة؟ أم الحب؟ أم الجمال؟ أم حركته أم أفكار الخلود واللانهائية؟ هل تأثر بالأفكار الداعية إلى مُثل الحرية والمساواة والعدل للجميع؟، تلك الأفكار «غير العملية» التي أحدثت التحولات في الأمم القديمة، ومهدت الطريق لميلاد أمم جديدة؟

وبالرغم من أن الاكتشاف اجتاح القزم، فما إن ذهب الضوء وانمحت الرؤية، حتى صدمه الواقع. وقد يمنحنا أسلوب الحياة المثالي الحلم والإلهام، إلاّ إنه لا يوفر سقفاً فوق الرؤوس. مع ذلك ليست الحياة كلها سعياً وراء اكتساب المزيد من المهارات وإنجاز قوائم لا تنتهي من المهام، أليس كذلك؟

لا تقتصر نقاط الضعف على البقال، بل للطلاب أيضًا نقاط ضعف، وصفة الادعاء، ادعاء التقوى الكاذبة، هي الأقرب إليهم. يظهر ذلك في قول الطالب «حرام تمزيق الكتاب هكذا». توحي كلمة «حرام» بصفة تنزيه الذات عن الخطأ التي تلازم كثيرين من فئة المتعلمين منذ قرون، عندما يتعاملون مع عامة الناس، فهذا الاتجاه يقوم على ادعاء أن غذاء العقل أسمى من تقديم الطعام إلى الناس.

بالإضافة إلى أن موقف الطلاب تجاه العامة قد يتصف بالتكبر والتعالي، فإنهم كذلك عرضة للتقوقع داخل عالم من الأفكار والنظريات، ينأى بهم عن العالم الحقيقي. صحيح أن العلية بها الكثير مما قد يحتاج البقال تعلمه، لكن الطالب أيضًا يمكن أن يتعلم أشياء مهمة لو أنه قضى بعض وقته في الدور الأرضي لدى البقال.

لدى كثير منا - نحن المتخصصين في التغيير المؤسسي التنظيمي والموارد البشرية وإعداد القادة - إيمان عميق بالبشر وإمكاناتهم. ولكن أبراهام ماسلو يقول في كتابه «ماسلو في الإدارة»: «إننا كثيرًا ما نغالي في الاعتداد بأفكارنا والالتزام أو الإيمان بها». وينصح ماسلو أن نمضي وقتاً أطول في الدكان، حيث يمكن أن نختبر نظرياتنا في واقع الأهداف الصلبة، والميزانيات الشحيحة، ومواعيد التسليم النهائية القاسية.

كذلك فإن الأفكار الفلسفية التي تتجاوز الزمن تكتسب الجدوى والمعنى عندما نستخدمها في علاج مشكلات مكان العمل مثل التنوع والاستعانة بعاملين من خارج البلاد، أو مرتبات التنفيذيين، وهي

مسائل يمكن أن يساعدنا الفهم العميق على اتخاذ قرارات أفضل بشأنها. وهذا هو أساس إقامة ندوات معهد آسبن، حيث يستخدم قادة من نواحي الحياة كافة: أعمال كبار المفكرين في علاج التحديات المجتمعية والعملية التجارية المزمنة.

التصرف المبني على التفكير

«سأوزع نفسي بين الاثنين، فأنا لا أستطيع الاستغناء عن البقال الذي يقدم لي العصيدة». «كان هذا القرار بشرياً بكل ما تعنيه الكلمة».

يستمتع البقال بالحياة في الدكان، بدخول الناس عنده وخروجهم، بالجدل حول الأسعار، بالكيل والوزن، وبالمال. هذه هي الحياة النشطة. وعند ترتيب الأولويات تأتي الممتلكات أولاً: لذلك فإننا نجري لننقذ الأقراط والصكوك عندما يشب حريق.

بخلاف البقال، يفضل الطالب حياة العزلة في عليته بصحبة عقول عظام المفكرين. هذه هي حياة الفكر. مع ذلك، قد تبتعد هذه الحياة كثيرًا عن «العالم الحقيقي». وعندما يهدد الحريق الشارع الذي يسكنه ـ مثلاً ـ يقف الطالب في هدوء يشاهد الحريق ـ فهو مجرد مراقب.

ينتمي القزم الصغير إلى العالَمين . كان في أول الأمر سعيدًا في الدكان، ولكن عندما اتسع عقله بالأفكار العظيمة، لم يعد قانعًا به. بل يريد أسباب راحته المادية ولكن النور الصادر من العلية يجذبه. وينسى القزم في أثناء الحريق أمر العصيدة. بل إنه يهرع إلى العلية ويودع الكتاب قلنسوته المخروطية الحمراء، ثم يندفع إلى السطح ومنه إلى

المدخنة، يجلس فوقها قابضاً على قلنسوته بكلتا يديه، ويعرف ماذا يهوى قلبه. لكن عندما ينطفئ الحريق ويهدأ روع القزم، يتذكر قدر حبه للعصيدة. ومن هذا المكان الذي يعلو عن الدكان والعلية معاً، يتضح كل شيء. ويدرك أنه ليس مضطرًا للاختيار بين الاثنين. بل يمكنه الجمع بينهما.

تتصف نهاية الحكاية الأصلية، المكتوبة بالدنماركية، بقدر من الغموض. إذ يستخدم هـ. ك. أندرسون مفردة «ديلي»، ويمكن ترجمتها على وجهين، يشير الأول إلى أن القزم «سيقسم» نفسه بين العالمين، ويشير الثاني إلى أنه «سيجمع» بينهما، وهذه نقطة لها أهميتها. فالترجمة الأولى، وهي الأكثر شيوعًا ترى الواقعين متصارعين، أما الثانية، التي أفضلها، فتسمح بالتكامل إذ تراه ممكناً.

يكتب رجل التربية «باركر بالمر» عن التعارض بين التأمل والفعل في كتابه «الحياة النشطة»، ويشير إلى أن الناس يتعاملون مع التناقضات الصريحة بطريقتين مختلفتين: فالأغلب أننا نبدأ بالحفاظ على المسافة الفاصلة بينهما ثم بعد ذلك ننتقل بينهما، والهدف المنشود هو البحث عن سبلٍ للتكامل بينهما. ويصك بالمر عبارة «التأمل والفعل» كوحدة لغوية واحدة، ويعني بذلك أن الواحد منهما لا وجود له بدون الآخر، فقد كان الرجل من دعاة التكامل.

أما اعتبار التأمل والفعل ضدين، فيعني إعلان الولاء لأحدهما في حرب حتمية. فإذا أظهرنا تحالفنا مع طرف ضد الآخر فسنسهم

بذلك في تفاقم المشكلة: لأننا نقلل من شأن حلفاء الطرف الآخر فنصفهم بأنهم «لا جدوى منهم» أو أنهم «يعيشون في أبراج عاجية» أو أنهم «جشعون مستغلون أنانيون». كان الطالب والبقال في أول الحكاية يعيشان في عالمين منفصلين، وقد اختار القزم أن يعيش في أحدهما فقط. كان البقال هو الرابح لأنه صاحب البيت ولأنه يبيع أفخر أنواع الزبدة، ولم يكن الطالب يملك شيئاً: لذلك كان عليه أن يلزم حدوده. وعندما يلقي الطالب نكتة تمس البقال، ينزعج القزم انزعاجاً شديداً، ويعزم على أن يلقن الطالب درساً، ولكن المدهش أن الدرس يتعلمه القزم لأنه يفتح عينيه على قيمة العالمين كليهما.

بدلاً من اختيار أحد الضدين المزعومين واحتقار الآخر، لماذا لا نرى فضائل الاثنين؟ يمكننا، مثلاً، أن نقسم أنفسنا بينهما، فنعطي أغلب أيام الأسبوع للأمور العملية، ونخصص أيام الجمع للتفكر، أو أن نهتم بعمل مهم عدة أشهر ثم نقوم برحلة لصيد السمك أو السياحة الخفيفة. وهذا ما يفعله القزم عندما يقضي النهار في الدكان الدافئ والمساء في العلية. فكلا المكانين مهم، لكنهما لا يتماسان.

ولكن ماذا لو كانت الممتلكات المادية والشعر يكمل أحدهما الآخر. شطرين في كلٍ أكبر. ساعتها سيكمل كل شطر منهما الآخر ويثريه. وهنا سيولد التوتر حلولاً خلاقة بدلاً من أن يخلق تمزقاً بين الناس. توحي جملة «سأجمع بينهما» بأن القزم يقبل التوتر. فإدراك حاجته للعصيدة لا يجعله يصدم في نفسه، كما أنه لا يتعجل حلاً غير ناضج. فهو يقبل أن الاثنين جزء من خبرته الحياتية، ولابد أن يجد طريقة تجعله يحتفظ بهما معاً. وفي ذلك واقعية تثري الحياة.

كانت ابنة أخي، ذات السنوات الست، بهذا القدر من الشفافية في مراجعة دوافعها، عندما سألتني منذ عدة شهور لماذا أنا نباتية. قالت زوجة أخي رداً عليها «لأن ميتي يسوؤها قتل الحيوان». ففكرت الطفلة برهة في الأمر بينما كانت تمضغ قطعة من لحم الدجاج، ثم نظرت إليّ وسألتني بجدية شديدة: «وأنا أيضاً أكره قتل الحيوانات... لكنني أحب لحم الدجاج فعلاً». سرني ردها، لأنها قبلت التناقض، وكانت أمينة أمانة قاطعة. فإن التعايش مع التوتر، بدلاً من فرض جانب من القضية عليها، سيمكنها من الوصول إلى إجابة خاصة بها وأمامها الوقت الكافي لذلك.

قد نمر، مثل القزم، بتجربة نفتح فيها عيوننا على حياة تتجاوز الحياة المادية، هذه التجربة قد تكون نتيجة مرض خطير، أو مأساة نعجز عن فهمها، أو آلية عمل تحدث في حياتنا نشعر فيها أننا سقطنا من فوق صخور عالية أو مشينا فوق جمرات حارقة، فتحدث تحولاً كبيرًا في حياتنا. على أثر تجربة كهذه تضيء كل الأشياء وتتضح لمدة قصيرة من الزمن؛ فنعرف أين ننتمي، ونشعر أننا حسمنا أمرنا. ولكن - في أغلب الأحيان - عندما يخف أثر التجربة، ويخفت وهجها، نعود إلى سلوكياتنا القديمة، ونجلد أنفسنا لقلة التزامنا.

والسؤال هو: لماذا نفرض على أنفسنا اختياراً فورياً بين مثل أعلى مصطبغ بالرومانسية وأساليبنا المعتادة في الحياة؟ الأفضل هو التعايش مع حالة من التوتر لمدة أطول. صحيح أن هذا أمر غير مريح

لكنه يتيح مساحة إبداع مدهشة: فالحياة مع هذا الصراع الظاهر تمكننا من إيجاد أوجه يستفيد كل جانب فيه من الآخر، وهذا يمهد للوصول إلى حل خاص بنا يجمع الواقعي مع المثالي.

ومن أشد الناس تأثيرًا في المجتمع من يشعر بالانتماء لدكان البقال ولعلية الطالب في آن واحد. من هؤلاء بيتر دراكر، وهو الذي أحدث عدداً من التطورات العملية في مجال الإدارة في القرن العشرين. يقول الرجل إنه في حالة تعلم دائم. ومنذ أن كان في أوائل الثلاثينيات من عمره، كان دراكر يتنقل بين المجالات (مثل العلاقات الدولية والقانون وتاريخ المؤسسات الاجتماعية والفن الياباني) فكان يدرس في كل مجال دراسة مكثفة لمدة ثلاثة أو أربعة أعوام. هذه الدراسات أفادت حياته العملية وجعلته واحداً من أعمق مفكري الإدارة بصيرة في عصرنا. و دراكر نفسه هو تجسيد للفكرة القائلة بأن النظرية الجيدة هي أكثر الأشياء عملية.

يحتاج كل منا لأن يعرف أي مرحلة من النمو قد بلغ. فهل ترى الحياة المثالية منفصلة عن نمط حياتك النشيط المحمل بقوائم الالتزامات؟ هل تستهلك نفسك في العالم الحقيقي، وتستخدم العالم المثالي لتتعافى من ذلك الإرهاق؟ أي المثل العليا التي تتجاوز الزمن تحرك مشاعرك؟ هل تسمح للأفكار التي تتحدى الزمن بأن تحدد اختياراتك؟ كلما اعتمدت على العملي والمثالي معاً: زاد احتمال وصولك إلى حلول خاصة بك. وكلما دمجت الاثنين: ازددت حكمة.

نقاط تستحق التفكير

- متى استخدمت مبادئ أخلاقية لاتخاذ قرارات عملية؟
- من الذين تعدهم ناجحين عملياً وأصحاب عقول وفكر؟

نقاط تناقشها مع زملائك

- ما الذي يتفق عليه الأغلبية في مؤسستك وعليك أن تقبله تلقائياً؟
- ما هدف التعليم؟ هل هو تعلم الفرد أن يفكر لنفسه؟ أم أن يتعلم شيئاً عملياً؟ أم تراه الاثنين معاً؟



5

حكاية

شجرة التنوب

«عندما نشعر بالسخط، نتوق إلى ما ليس في أيدينا»



حكاية شجرة التتوب أمثولة رمزية عن الحياة. وهي حكاية مأساوية، ليس لأن شجرة التتوب تموت، بل لأنها لم تعش الحياة بحق قط. كانت مشغولة دائماً بأفكار عن المستقبل أو عن الماضي حتى غفلت عن حاضرها فلم تعشه مطلقاً.

تمس هذه الحكاية شيئاً لا غنى عنه للحياة السعيدة: وهو الوعي باللحظة الآنية وتقديرها. ومن العوامل المشجعة على تهدئة قلقنا بشأن ما يمكن أن يحدث والاستمتاع بما هو كائن: أن نزيح مخططاتنا جانباً لبعض الوقت وأن نستمتع باللحظة التي نعيشها، وأن ننصت لنصائح الأجداد، ونتفكر فيما بين أيدينا من نِعَمٍ.

والاستمتاع باللحظة الآنية أمر بسيط، لا يتطلب وقتاً أطول أو جهداً أكبر أو استجماع شجاعة، بل كل ما يحتاجه هو الوعي و التقدير، إلا أن أغلبنا لا يفعل ذلك. والأسئلة الحاضرة هنا هي: ما الذي يمنعنا من أن نعيش حاضرنا فوراً؟ وكيف نعيش حياتنا على نحو أكثر تناسقاً؟

وبينما تقرأ الملخص التالي، أو الحكاية الكاملة إن شئت، أدعوك للتفكير في الأسئلة الآتية: هل أنت أقرب للانشغال بالتفكير في أشياء تفصلك عن حاضرك؟ هل تؤجل حياتك، بدعوى أن الحياة لا تستحق أن تعاش إلا بعد أن تقلل وزنك أو تشتري سيارة جديدة أو توفي ما عليك من التزامات في موعدها؟ هل تجنح إلى التفكير في الأيام الخوالي السعيدة؟

ملخص الحكاية

كان في الغابة شجرة تنوب صغيرة جميلة. ولم تكن الشجرة تريد سوى شيء واحد، أن تكبر وترحل من الغابة. لم تكن تقدر قيمة الشمس ولا الهواء المنعش المتجدد. وعندما سمعت عن الصواري في السفن التي تجوب البحر، قالت في نفسها: «أتمنى لو كنت كبيرة حتى أبحر عبر المحيط». بعد ذلك سمعت عن بهاء أشجار عيد الميلاد، ولم تكن هذه الشجرة الساخطة تطيق الانتظار حتى حلول عيد الميلاد.

وبعد زمن، جاء مَنْ قطع الشجرة ونَفُذَتْ البلطةُ إلى قلبها، وشعرت الشجرة بحزن شديد على موطنها الذي ستنتزع منه. لكن ما لبثت أن عاودها الشعور بالسعادة والإثارة عندما وجدت نفسها في غرفة جميلة يزينها الخدم بالشموع والحلوى ويقولون: «ستتألق هذه الشجرة الليلة»، و قالت في نفسها: «كم أتمنى أن يأتي الليل الآن! فماذا سيحدث ساعتها؟».

وأخيراً، أوقدت الشموع، وصارت الشجرة في كامل بهائها، ولكنها كانت تخشى أن تتحرك أدنى حركة. شبك الحاضرون أيديهم ورقصوا حول الشجرة التي ظلت تتساءل: «ماذا يفعلون؟ وماذا سيحدث بعد ذلك؟» وفي النهاية، ذابت الشموع وروى رجل ضئيل الحجم قصة «كلومبي دومبي» الذي سقط من فوق الدرج ومع ذلك فاز بيد «الأميرة». أعجبت القصة الشجرة وأخذت تفكر في الغد، وكيف أنها ستتألق مرة أخرى.

ولكن في الصباح التالي وُضعت الشجرة في المخزن العلوي، وتركت مع أفكارها. وبعد مدة طويلة، مرت بعض الفئران الفضولية، فحَكَت لهم الشجرة عن نشأتها في الغابة. فانطلقت الفئران تقول في إعجاب: «لابد أنك رأيت الكثير، وأنك كنت في غاية السعادة». أدركت الشجرة حينئذ أن الزمن الذي عاشته في الغابة كان جد سعيد. ثم حكت لهم عن ليلة عيد الميلاد، والقصة التي سمعتها عن كلومبي دومبي. قالت الفئران الصغيرة: «لقد رأيت سعادة كبيرة. وظنت الشجرة أن الأيام السعيدة ستعود، وأنها ستفوز بحياة سعيدة كما فاز كلومبي دومبي بيد الأميرة».

وفي إحدى الليالي ظهر جرذان أرادا أن يسمعا عن اللحم والدهن، إذ ضجرا من حكايات الشجرة. وما لبثت الفئران أيضاً أن ملت حكاياتها وابتعدت عنها. افتقدت الشجرة الفئران الصغيرة وقالت: «كان التفاف تلك الفئران حولي واستماعهم لكلامي أمرًا ممتعًا حقاً». وعزمت الشجرة على أن تستمتع بكل شيء حينما يتاح لها الخروج مرة أخرى.

وأخيرًا، جاء من حمل الشجرة خارج المخزن وأحست بالهواء المنعش والشمس، وقالت بصوت عالٍ فرحٍ: «الآن سأعيش حق الحياة». ونشرت فروعها، فلم تر إلا الذبول والجفاف. خجلت الشجرة من بشاعتها وقالت: «ليتني استمتعت بحياتي عندما كان ذلك متاحًا».

وفي النهاية، قطعت الشجرة قطعًا صغيرة وألقيت في النار تحت الغلاية الكبيرة، وكانت مع اشتعال كل حطبة فيها تئن: «انتهى كل شيء، كل شيء».

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم... شهد ديسمبر من العام 1944 صدور حكاية «شجرة التنوب». وقد عبّر هـ. ك. أندرسون عن ثقة متزايدة في رسوخ مكانة الحكاية الخرافية بوصفها جنسًا أدبيًا فيما كتبه لصديقه هـ. ك. أورستد، وهو العالم الذي اكتشف المغناطيسية الكهربية: «أتساءل ماذا سيقول الناس عن هذه الحكايات بعد عشرين سنة. ولا أظن أنها ستكون طي النسيان».

مثل شجرة التنوب، كان المؤلف ساخطًا دائمًا، يحلم بمجد أعظم أو يأخذه الحنين ليعيش زمناً ماضياً. ويصف جاكي فوتشاغلر هذه القصة بأنها «صورة ذاتية دقيقة في ثوب خيالي»، وكانت دراسته لسيرة حياة أندرسون تنصب على الصفات العصابية وحاجة هذا الأديب لدعم الآخرين له. «ويصفها كذلك بأنها قصة مأساوية تعبر عن شفقتها للذات بعد إدراك ذكي لمكنونها».

كان لأندرسون في صباه صوت جميل وشغف بالتمثيل. فكان يحب أن يغني ويؤدي في حفلات صغيرة على النطاق المحلي في أودنس، وكسب من ذلك بعض النقود مكنته بعد مدة من توفير نفقة السفر إلى كوبنهاغن. ولم يمض على وجود هذا الصعلوك الصغير اثنا عشر يومًا، حتى عرف كيف يصل إلى منزل مدير كورس المسرح الملكي، حيث كان يتجمع عنده على العشاء عدد

كبير من نجوم جوقة كوبنهاغن. كان أداء الصبي ساذجاً، وربما مضحكاً بالنسبة لهذه النخبة من نجوم المدينة، لكن صدقه وموهبته مست مشاعرهم، فقرروا رعاية هذا الغريب، ودار صحن على الحضور يجمعون فيه مبلغًا بسيطًا يعيش منه. وبعدها بسنوات، صار الصبي أديبًا شهيراً، ولكنه استمر في تقديم مثل ذلك العرض أمام جمهور على عشاء كان هو ضيف الشرف فيه، وكان يقرأ قصصه لمضيفه والحضور في تلك البيوت العظيمة.

يقول فوتشاغلر إن القصة التي تحكي رغبة الشجرة في أن تتألق دائمًا وراءها «تشاؤم عميق، يشير إلى قسوة الحياة، وأن اللحظة الآنية وحدها هي ما تستحق الاهتمام». ربما كانت هذه الأفكار شائعة في ذلك الزمن، فقد كان سورين كيركغارد، مؤسس الفلسفة الوجودية، من معاصري هـ. ك. أندرسون.

الحكاية الكلاسيكية

كان في الغابة شجرة تنوب جميلة، في موقع طيب يأتيها فيه الشمس والهواء ويحيطها أصدقاء كثر أطول قامة من التنوب والصنوبر. لكن الشجرة الصغير كانت تتعجل النمو. إذ لم تكن شجرة التنوب تقدر ما حولها من شمس دافئة وهواء متجدد، ولم تكن تهتم بأطفال المزارعين الذين يمشون أمامها وتعلو أصواتهم وهم يجمعون حبات الفراولة والتوت. كانوا يأتون كثيرًا ومعهم آنية يملؤونها إلى حافتها بتلك الثمرات أو يصنعون منها عقدًا بخيوط من القش، ثم يجلسون إلى الشجرة الصغيرة ويقولون: «هذه الشجرة الصغيرة رائعة الجمال». لكن سماع هذا الكلام لم يسعد الشجرة قط.

وفي السنة التالية، نما جذع الشجرة فصارت أطول بمقدار عقدة. فإن عمر شجرة التنوب يحسب بعدد عقدها.

قالت الشجرة بأسى: «ليتني كنت شجرة ضخمة كالأخريات، فساعتها كنت سأمد فروعي بعيدًا، وأرى من عليائي الدنيا الواسعة البعيدة. ثم تأتي الطيور وتعشش على فروعي، وعندما تهب الرياح، أخفض رأسي في كبرياء، كتلك الشجرات من حولي».

لم تكن الشجرة تستمتع بسطوع الشمس على الإطلاق ولا بالطيور أو السحب الحمراء التي كانت تمر فوقها صباح مساء.

وعندما حل الشتاء وتناثر الثلج الأبيض اللامع في كل مكان حولها، كان يأتي أرنب صغير ويقفز من فوق الشجرة الصغيرة ـ فكانت تستاء من ذلك كثيرًا. ومر شتاءان، وفي الشتاء الثالث كانت قد نمت بقدر يجبر الأرنب على أن يتقافز من حولها لا من فوقها. وقالت الشجرة في نفسها: «أريد أن أكبر وأكبر، فهذا هو الشيء الممتع الوحيد في هذه الدنيا».

كان الحطابون يأتون في الخريف من كل عام ليقطعوا بعض الأشجار الطويلة في الغابة. كانت شجرة التنوب الصغيرة، وقد صارت كاملة النمو، ترتعد عندما ترى الأشجار السامقة تسقط على الأرض وهي تئن، وترى تقطيع فروع هذه الأشجار حتى تصير عارية ونحيفة وطويلة فلا تكاد تعرفها دون فروعها المقطوعة وأوراقها. وكانت الأشجار المقطوعة توضع في عربات تجرها الخيول وتذهب بها خارج الغابة.

أين تذهب هذه الأشجار؟ وماذا يحدث لها؟

في الربيع، عندما جاء العصفور وطائر اللقلق سألتهما شجرة التنوب الصغيرة: «هل تعرفان إلى أين أخذت تلك الأشجار؟» هل قابلها أحدكما، لم يكن العصفور يعرف شيئاً، ولكن اللقلق بدا عليه التفكير ثم أومأ برأسه وقال: «أظن ذلك. فقد مررت فوق سفن كثيرة في أثناء رحلة عودتي من مصر، وكان للسفن صواري أشجار سامقة، وأعتقد أنها هي ما تسألين عنه: فقد كانت تفوح منها رائحة أشجار التنوب، وأوصتني أن أنقل تحياتها، وكانت رؤوسها عالية، عالية جداً».

«أتمنى لو كنت كبيرة حتى أبحر في المحيط، ولكن ما المحيط هذا؟ وما شكله؟».

«هذا أمر يصعب شرحه» قال اللقلق هذا ورحل. وقالت أشعة الشمس للشجرة: «اسعدي بشبابك النضر والحياة المتدفقة داخلك».

وقبّلتها الرياح، وتقاطرت دمعات الندى عليها، ولكن شجرة التنوب الصغيرة لم تفهم.

وعندما اقترب عيد الميلاد، قطعت بعض الأشجار الصغيرة جدًا، حتى الشجرات التي لم تبلغ عمر شجرة التنوب ولا حجمها. كانت الشجرة ساخطة ولا تريد إلا الرحيل. كانت الشجرات التي قطعت هي الأجمل، وكانت تحتفظ بكل فروعها عندما وضعوها على العربات التي جرتها الخيول إلى خارج الغابة.

سألت شجرة التنوب «إلى أين يذهبون؟» فحجمها لا يزيد عن حجمي وكانت بينها واحدة أصغر مني كثيرًا. ولماذا يحتفظون بكل فروعها؟ أين يذهبون بها؟

قالت العصافير: «نحن نعرف، نحن نعرف. إنها تذهب إلى المدينة، فلقد رأينا ما وراء النوافذ، ونعرف أين تذهب الأشجار. إنها تلقى تعظيمًا شديدًا، وتزين بأبهى زينة، شيء لا يخطر ببال. فقد رأينا من خلال النوافذ أنهم يزرعونها وسط غرفة دافئة ويزينونها بأجمل الأشياء: تفاح مطلي بالذهب، وكعكات عسل، ولعب، ومئات الأشياء الأخرى والشموع».

«وبعد ذلك؟ ماذا يحدث بعد ذلك؟»

وجهت الشجرة سؤالها للعصافير وكل فرع فيها يرتجف.

«الحقيقة أننا لم نر أكثر من ذلك، لكنه كان رائعًا»؟

صرخت الشجرة فرحاً: «ربما سيكون مستقبلي في مثل هذه الرحلة الرائعة، فهذا أفضل من الإبحار في المحيط. كم يعذبني الشوق لهذا المستقبل. ليتنا كنا في عيد الميلاد. فأنا الآن بلغت من الطول والعرض ما بلغته الأشجار التي أخذت في العام الماضي. ليتني كنت معهم في تلك العربة، وفي غرفة المعيشة الدافئة بكل ذلك الجلال والفخامة! ولكن ماذا بعد؟ مؤكد أن ذلك يليه شيء أفضل، شيء أجمل، وإلا فيم كل الزينة التي سيضعونها علي؟ لابد أن ما سيحدث بعد ذلك أعظم وأفخم. ولكن ما هو؟ كم أتحرق شوقاً لأن يحدث شيء! ولا أعرف ماذا يجري لي».

قال لها الهواء وشعاع الشمس: «استمتعي بنا، واستمتعي بشبابك، وأنت هنا في هذا المكان المفتوح».

ولكن الشجرة لم تستمتع على الإطلاق، بل استمرت في النمو أكثر وأكثر طوال الشتاء والصيف، فكانت تقف بلونها الأخضر الغامق حتى رآها بعض الناس وقالوا «تلك شجرة جميلة». وعندما حل عيد الميلاد كانت أول ما قطع من الأشجار. نفذت البلطة إلى قلبها وسقطت على الأرض وهي تئن. وشعرت بالألم، وغابت عن الوعي، ولم تشعر بأي

أفكار سعيدة. كانت الشجرة حزينة على موطنها الذي ستتركه، تلك البقعة التي نمت فيها، كانت تعرف أنها لن ترى أصدقاء العمر الأعزاء مرة ثانية، تلك الشجيرات والزهور حولها، بل ربما لا ترى الطيور

لم تعِ الشجرة شيئاً بعد ذلك حتى وصلت إلى فناء بيت فأنزلت من العربة مع غيرها من الشجر، وسمعت رجلاً يقول: «هذه الشجرة فخمة، ولا نريد إلا هي». ثم جاء خادمان بملابس أنيقة وحملا شجرة التنوب إلى غرفة كبيرة جميلة. كانت اللوحات معلقة في كل مكان على الجدران، وفوق الموقد الكبير المبلط، كان يوجد مزهريتان من الصيني يقف على غطائيهما أسدان. وكانت هناك كراس هزازة، وأريكة فراشها حرير، وطاولات كبيرة رصت عليها ألبومات الصور، ولعب تساوي مئات المئات من الدولارات ــ هذا ما قاله الأطفال. غرست الشجرة في برميل صغير مليء بالرمل، ولكن لم يكن يبدو عليه أنه برميل إذ كان ملفوفًا بقماش أخضر، وكانت تحته سجادة ملونة كبيرة.

كانت الشجرة ترتعد بشدة. ماذا سيحدث؟ ثم جاء الخادمان والسيدات الشابات، وأخذوا يدورون حولها ليزينوها. فعلى هذا الفرع علقوا أعشاشاً صغيرة مصنوعة من الورق الملون، وملؤوا كل عش بالحلوى. كما علقوا على الفروع أكثر من مئة شمعة صغيرة حمراء وزرقاء وبيضاء. وعلقوا وسط خضرة الشجرة دمى كانت تبدو حية لشدة شبهها بالبشر. ولم تكن الشجرة قد رأت مثلها من قبل. وعلى قمة الشجرة وضعوا نجمة كبيرة من ورق الزينة الذهبي. كانت الشجرة كاملة البهاء وكأنها درة من الجمال.

قالوا جميعًا: «هذه الشجرة ستتلألأ الليلة».

قالت الشجرة: «ليت الليلة تأتي حالاً، وليتهم يوقدون الشموع حالاً»، ثم ماذا سيحدث بعد ذلك؟ وهل ستأتي الأشجار من الغابة لتشاهدني، وهل ستطير العصافير حتى النافذة؟ وهل سأمد لنفسي جذورًا هنا وأبقى مزينة في الشتاء والصيف؟

لم تكن الشجرة تعرف إلا القليل، وكانت من فرط الشوق لما هو آت، تعاني صداع اللحاء، وهو مؤلم للشجر مثل صداع الرأس عند البشر.

والآن أشعلت الشموع، فكان البريق آخاذاً والبهاء آسرًا حتى إن الشجرة ارتعدت بكل فروعها وأمسكت النار بفروعها الخضراء، وكان ذلك مؤلمًا للغاية.

صرخت الشابات: «يا إلهي!» وأسرعن بإطفاء النار. لكن لم تكن الشجرة تجرؤ الآن على مجرد الارتعاش، وكان ذلك إحساسًا رهيبًا. كانت تخشى أن يسقط شيء من زينتها، وكانت الأضواء البراقة تصيبها بالدوار. ثم فتح البابان الكبيران واندفع منهما مجموعة من الأطفال حتى بدا أنهم سيسقطون الشجرة على الأرض، فنبههم الكبار أن يمشوا بهدوء. وقف الصغار صامتين برهة ثم انطلقت صيحات المرح عالية مرة أخرى. ورقص الجميع حول الشجرة بأيدٍ متشابكة، ثم يلتقطون الهدايا من الشجرة واحدة تلو الأخرى.

قالت الشجرة: «ماذا يفعلون؟ ماذا سيحدث؟» أخذت الشموع المشتعلة تذوب ثم تنطفئ حينما تصل النار إلى فروعها ، ثم سمح للأطفال بأخذ الحلوى من الشجرة. وكم كان اندفاعهم عنيفًا حتى إن

فروعها كانت تتأوه، ولو لم تكن قمة الشجرة معلقة بالسقف لوقعت على الأرض.

أخذ الأطفال يرقصون في المكان ولعبهم المبهرة في أيديهم. لم يكن أي منهم ينظر إلى الشجرة إلا الممرضة العجوز التي دارت حولها وهي تحدق بين فروعها، ولم يكن ذلك إلا بحثاً عن تينة أو تفاحة غفل عنها أحدهم.

تعالت أصوات الأطفال: «حدوتة، حدوتة» وهم يجذبون رجلاً قصيراً بديناً نحو الشجرة، فجلس الرجل تحتها تمامًا وقال: «وكأننا الآن في الغابة الخضراء»، ويمكن أن تستفيد الشجرة نفسها كثيرًا من الاستماع للحكاية، لكني لن أقص إلا حكاية واحدة؛ فهل تريدون حكاية «إيفيدي ـ أفيدي» أم حكاية «كلومبي دومبي» الذي سقط من فوق الدرج لكنه وصل إلى العرش وفاز بالأميرة؟

صاح بعضهم: «إيفيدي ـ أفيدي» وصاح آخرون: «كلومبي دومبي» فملأت أصواتهم المكان. كانت شجرة التنوب وحدها تفكر في سكون تام: «ألست جزءاً من الحدث؟ أليس لي دور؟» وقد كانت بالفعل جزءًا من الحدث؛ لكن انتهى الدور الذي كان عليها أن تؤديه.

حكى الرجل حكاية «كلومبي دومبي» الذي سقط من فوق الدرج لكنه وصل إلى العرش وفاز بالأميرة. صفق الأطفال وصاحوا: «حكاية أخرى، حكاية أخرى».

كـانوا يريدون أن يسـمـعـوا حـكاية «إيفـيـدي ـ أفـيـدي» لكنهم لم يسمعوا سوى «كلومبي دومبي». ظلت الشجرة في سكون تام غارقة في التفكير. لم تحكِ لها العصافير في الغابة شيئاً من هذا قط. سقط «كلومـبي دومـبي» من فـوق الدرج لكنـه فـاز بالأمـيـرة. «نعم ! لابد أن الدنيـا تسـيـر علـى هذا النحـو». هكذا قـالت الشـجـرة في نفـسـهـا: إذ اعتقدت أن القصة حقيقية لأن الرجل الذي حكاها كان رجلاً طيباً. «نعم. من يدري لعلي أسقط من فوق الدرج مثله وأفوز بالأميرة». كانت الشجرة مشغولة منذ تلك اللحظة باليوم التالي. حتى تزين مرة أخرى بالشموع واللعب والورق المذهب والفاكهة.

قالت: «غداً لن أرتجف. بل سأستمتع بما أنا عليه من بهاء». وغداً سـأسـمـع حكاية «كلومـبي دومـبي» وربما حكاية «إيفـيـدي ــ أفـيـدي» أيضاً. وقفت الشجرة في سكون غارقة في التفكير طوال الليل.

وفي الصباح جاء خادم وخادمة. فقالت الشجرة في نفسها: «الآن يبدأ التزيين من جديد». لكن الخادمين قاما بجرها إلى خارج الغرفة وصعدا بها الدرج حتى المخزن العلوي. وألقيا بها في ركن مظلم لا يصله ضوء النهار. تساءلت الشجرة: «ماذا يجري؟ وما عساي أن أفعل هنا؟ وما عساي أن أسمع في هذا المكان؟» استندت شجرة التنوب إلى الجدار وظلت واقفة تفكر وتفكر. كان لديها وقت طويل. تعاقبت فيه الأيام والليالي. لم يصعد أحد إلى هذا المكان قط. وعندما صعد أحدهم أخيراً، كان ليضع بعض الصناديق الكبيرة في الركن. وصارت الشجرة الآن مختفية عن الأنظار وكأن النسيان طواها.

قالت الشجرة في نفسها: «نحن الآن في الشتاء، والأرض صلبة تغطيها الثلوج، ولا يستطيع البشر أن يزرعوني»، هذا هو السبب في أنني هنا حيث أحتمي من البرد انتظارًا للربيع. هؤلاء البشر يراعون المشاعر، ويهتمون بغيرهم من المخلوقات. المشكلة أن المكان هنا مظلم تمامًا، وموحش للغاية. لو أن أرنباً صغيراً يأتي! كم كانت الحياة في الغابة جميلة: الثلوج في كل مكان والأرنب يتقافز حولي، بالرغم من أنني ساعتها كنت أستاء منه، لكن المكان هنا موحش للغاية.

«بيب، بيب» كان ذلك صوت فأر صغير ظهر فجأة ثم تبعه آخر. أخذا يتشممان الشجرة ثم دخلا بين فروعها ثم خرجا.

قال الفأران: «الطقس قارس، ولولا ذلك لكان المكان هنا رائع الجمال. ألا تظنين ذلك أيتها التنوب العجوز؟»

قالت الشجرة: «لست عجوزًا على الإطلاق، فهناك أشجار كثيرة أكبر مني عمرًا».

قال الفأران: «فمن أين أتيتِ؟ وماذا تعرفين؟» كان الفضول يغمرهما «أخبرينا عن أجمل مكان على الأرض وهل رأيته؟ هل ذهبتِ يومًا إلى مخازن الطعام، حيث الجبن على الرفوف واللحم معلق من السقف، وحيث يمكن الرقص على شموع الدهن، وحيث يدخل الواحد نحيلاً ليخرج سمينًا».

قالت الشجرة «لا أعرف مخزن الطعام، لكني أعرف الغابة جيدًا، حيث تسطع الشمس وتشدو الطيور». ثم حكت لهما الشجرة كل شيء عن نشأتها. لم يكن الفارأن الصغيران قد سمعا شيئاً كهذا من قبل

فأصغيا إليها ثم قالا: «لابد أنك رأيتِ أشياء كثيرة، ولابد أنك كنتِ في غاية السعادة».

قالت شجرة التنوب: «أنا؟» وأخذت تفكر فيما حكته، ثم قالت: «نعم، كانت تلك أوقاتاً سعيدة جداً». ثم حكت عن ليلة عيد الميلاد عندما زينوها بالكعك والحلوى.

قال الفأران: «يا سلام! لابد أنك كنتِ في منتهى السعادة أيتها التنوب العجوز».

قالت الشجرة: «لست عجوزًا على الإطلاق، فلقد أتيت هذا الشتاء فقط من الغابة. أنا في أوج شبابي، كل ما في الأمر أن نموي تعطل مؤقتًا».

قال الفأران: «إنك تقصين الحكايات بطريقة جذابة».

وفي الليلة التالية أتى مع الفأرين أربعة فئران صغيرة أخرى ليسمعوا الشجرة وهي تقص حكايتها. وكلما روت شيئاً تذكرت المزيد من التفاصيل، وقالت في نفسها: «كانت تلك أياماً جميلة حقاً، لكنها يمكن أن تعود، يمكن أن تعود. فقد سقط كلومبي دومبي من فوق الدرج، ومع ذلك فاز بالأميرة: فلعلي أفوز بأميرة مثله». و ذهبت الشجرة بخيالها إلى شجرة بتولا صغيرة جميلة، وتصورتها أميرة جميلة مناسبة لها.

سألتها الفئران: «ومن كلومبي دومبي؟» فقصت الشجرة عليهم الحكاية الخيالية كلها، فقد كانت تذكر كل كلمة فيها. وسعدت الفئران

بالقصة حتى إنها قفزت إلى قمة الشجرة من فرط السعادة. وجعلت الفئران تأتي بأعداد أكبر، بل إن جرذين جاءا في أحد أيام الآحاد. لكنهما قالا إن القصة لم تكن مسلية على الإطلاق. فأحبط ذلك الفئران وجعلها تغير رأيها في القصة.

سأل الجرذان الشجرة: «ألا تعرفين غير هذه القصة؟» قالت الشجرة: «هذه فقط، لقد سمعتها في أسعد ليلة في حياتي، ولو أنني لم أدرك وقتها كم كنت سعيدة».

«هذه قصة بالغة السوء! ألا تعرفين قصصاً عن الشحوم وعن شموع الدهن؟ أو قصصاً عن مخازن الطعام؟»

فردت الشجرة: «لا!»

عندئذ قال الجرذان: «إذن لا نشكرك على أي شيء». ثم رحلا.

وفي النهاية، ابتعدت الفئران أيضاً عنها. تنهدت الشجرة وهي تقول: «كم كان جميلاً للغاية أن تأتي تلك الفئران الصغيرة، وتلتف حولي وتستمع لما أقول، والآن انتهى ذلك أيضاً. لكني سأتذكر أن أستمتع بما لدي عندما يأخذونني للخارج مرة أخرى».

ولكن متى سيحدث ذلك؟ وبعد مدة في صباح أحد الأيام أتى رجلان وأخذا يجولان في المخزن العلوي، ثم دفعا الصناديق إلى الجوانب، وجرا الشجرة إلى الخارج، وألقيا بها على الأرضية الصلبة. وعلى الفور جرها خادم نحو الدرج الذي يغمره ضوء النهار.

قالت الشجرة في نفسها: «الآن تبدأ الحياة من جديد». شعرت بالهواء المنعش وبأشعة الشمس لأول مرة منذ زمن، وسرعان ما وصلت إلى فناء البيت. كان كل شيء يتحرك بسرعة شديدة، نسيت الشجرة تماماً أن تنظر إلى نفسها، إذ انشغلت بالنظر للأشياء الكثيرة التي حولها. كانت الساحة بجوار الحديقة، وكان كل شيء هناك في أوج ازدهاره: كانت الورود متفتحة فوق السور الصغير ورائحتها الزكية تملأ المكان. وكانت أشجار الصفصاف مزدهرة تطير فوقها العصافير وتغني كل عصفورة منها: «مرحباً بزوجي الذي عاد». ولم تكن العصافير تقصد شجرة التنوب بهذا الغناء.

«والآن سأعيش»، رفعت شجرة التنوب صوتها فرحاً وهي تمد فروعها، لكن للأسف كانت كلها ذابلة صفراء، وهي نفسها ملقاة في ركن بين الأعشاب والنباتات الشوكية. ولم تزل النجمة الورقية المذهبة على رأسها تلمع تحت الشمس الساطعة.

كان هناك طفلان سعيدان يلعبان في الفناء، وهما اللذان رقصا حولها ليلة عيد الميلاد، وكانا مسرورين للغاية بمنظر الشجرة. اندفع أصغرهما نحوها ونزع النجمة الذهبية. «انظروا ماذا كان على رأس شجرة عيد الميلاد العجوز البشعة»، قال ذلك وهو يدوس على فروعها التي كانت تئن تحت حذائه.

نظرت الشجرة إلى الزهور الجميلة من حولها وإلى النضارة التي تشع في كل ركن من أركان الحديقة، ثم نظرت إلى نفسها، وتمنت لو

ظلت في ركنها المظلم في المخزن العلوي. تذكرت شبابها النضر في الغابة، وتذكرت ليلة عيد الميلاد السعيدة، وتذكرت الفئران التي أحبت سماع حكاية كلومبي دومبي. قالت الشجرة المسكينة: «كل شيء انتهى، انتهى كل شيء»، وأردفت قائلة: «ليتني استمتعت بما لدي عندما كان لدي. لقد انتهى كل شيء، كل شيء انتهى».

جاء الخادم وقام بقطع الشجرة إلى قطع صغيرة، وسرعان ما تحولت إلى كومة كبيرة على الأرض، وصارت حطبًا يشتعل بقوة تحت الغلاية الكبيرة. كانت الشجرة تتنهد بعمق، وكانت كل زفرة كالرصاصة. سمعها الأطفال وهم يلعبون، فجروا نحوها وجلسوا أمام النار. نظروا إليها وهم يقولون: «بوم... بوم»، ومع كل طلقة زفرة عميقة. كانت الشجرة تفكر في يوم صيف في الغابة، أو في ليلة شتاء والنجوم تلمع. وفكرت في ليلة عيد الميلاد، وفي كلومبي دومبي، القصة الخيالية الوحيدة التي سمعتها وتستطيع أن تقصها. ثم أتت النار على شجرة التنوب كلها.

كان الأطفال يلعبون في الفناء، وكان أصغرهم يضع النجمة الذهبية على صدره، تلك النجمة التي توجت الشجرة في أسعد ليالي حياتها. والآن انقضت تلك الليلة إلى غير رجعة، كما ذهبت الشجرة بلا عودة. وهذه القصة أيضًا تنتهي هنا. انتهى كل شيء، وهكذا لكل حكاية نهاية.

تطبيقات الحكاية

كثير منا يفعل مثل شجرة التنوب، فيكون جسده في مكان وعقله يسكن مكاناً آخر. ففي أثناء أيام العمل نتطلع لإجازة نهاية الأسبوع، التي نتوقع أن نرتاح فيها ونلعب وننام كما نحب ونعوض ما فاتنا. ولكن ما إن يأتي يوم الأجازة، حتى تذهب عقولنا إلى العمل. وربما نكون بأجسادنا في دار العبادة أو على شاطئ البحر، وأفكارنا تجول في أماكن بعيدة. حتى ونحن نعيد قراءة حكاية ما قبل النوم لأطفالنا للمرة الرابعة، نجد أنفسنا مشغولين بشيء نريد أن نتمه. نحن نتظاهر بالحضور: والحقيقة أننا غائبون.

إنني لا أدعو بذلك للامتناع عن التفكير. فكلنا يحتاج لأن يسترجع حدثاً ماضيًا ويتفكر فيه حتى يتجنب الوقوع في الأخطاء نفسها، كما نحتاج لأن ننظر أمامنا ونطرح أسئلة تبدأ بكلمة «ماذا لو» التي دونها لا يمكن أن نتطور أو نبدع. لكن طرح الأسئلة العميقة أمر يختلف عن السماح لكل شاردة وواردة أن تحتل عقولنا وتسلبنا كل لحظة من حياتنا.

للحياة دورة تبدأ بالميلاد ثم النمو، ثم النضج ثم الضعف ثم الموت ثم البعث. وهناك دورات الفصول الأربعة واكتمال القمر واختفاؤه. في كل لحظة يولد شيء جديد، وفي المعتاد نتشوق للنصف الأول من الدورة ونقاوم النصف الثاني، بالرغم من أن لكل نصف ميزاته: فالأول

يهب التوسع وإثارة الاستكشاف، والثاني يمدنا بالعمق والشمول. إن دورة الحياة والموت الكبيرة تتضمن دورات كثيرة أصغر: إذ تنشأ علاقة وتنتهي أخرى، أو نتخذ هواية و نقلع عن أخرى، أو نبدأ مشروعًا أو ننهي آخر، وتظهر هذه الدورات في حياتنا حينما نتحدث عن دورة حياة المنتجات أو دورة الأعمال التجارية.

يمكن أن تقتلع الشجرة من جذورها، لكننا نستطيع أن نبقى موصولين بجوهرنا. فإذا كان عملنا قد فقد الجذوة التي كانت تشعل حماسنا، وحل مكانها الضجر، فينبغي أن نسأل أنفسنا: «لماذا توقف تدفق الحماس؟ ولماذا ذهبت الروح المتطلعة؟» فربما نسينا سبب تعلقنا بعملنا وحبنا له من شدة ضغط الالتزام بالمواعيد النهائية. فإن كان الأمر كذلك، فعلينا أن نجعل في حياتنا فسحة بعيدة عن هذا الضغط. أما إذا رأينا أن مشروعنا قد صار أصغر منا حجمًا، فينبغي أن نتركه ونلزم السكون بعض الوقت، حتى يتسنى ظهور شيء جديد يرضينا. ولكن للأسف غالباً ما نهمل أوقات الراحة وإعادة تجميع القوى، فنعانق أول فرصة تواتينا دون روية. فهناك من يسجل في اختبارات تحديد المستوى لدورات مدرسية متقدمة، أو لنيل المزيد من الساعات الجامعية المعتمدة، أو المشروعات المهمة التي يتحدث عنها الجميع. كذلك فإن رغبتنا الدائمة في الحركة والتقدم قد تعوق النمو المنشود.

الرغبة الشديدة في التألق

«ليت الليلة تأتي حالاً، وليت الشموع تضاء حالاً، ثم ماذا سيحدث بعدها؟»

يصور النصف الأول من القصة روح الحياة الحديثة بأنها نافدة الصبر، وأن عقل ما بعد الحداثة لا يعرف الرضا. لا تكاد الشجرة تطيق صبرًا حتى تكبر وترحل وتتألق: فهي مفعمة بالحياة وتشعر أنها ستخلد، ويأخذها الحماس فتقطع دورة نموها الطبيعي. لكن هذا التململ والضجر يمنع الشجرة من أن تستمتع بأعظم ليلة في حياتها. حرمها التفكير المستمر والقلق والتساؤل عن «ماذا بعد؟» من عمر تألقها القصير الذي لم يدم أكثر من خمس عشرة دقيقة.

بالرغم من أننا نعيش زمناً زادت فيه الخيارات والفرص عن ذي قبل، فإننا أقل رضا. فعقولنا زائغة، قلقة خشية أن يفوتها شيء. فإننا مشغولون بأسئلة مثل، كيف نحصل على ما نريد؟ وكيف نخلق تناغماً بين كل ما نريد؟ وأين مكاننا وسط المحيطين بنا؟

تشعل الإعلانات السخط فينا، فنحن نريد ارتداء الأنواع الجديدة ومشاهدة الأفلام التي تحدث ضجة وتذوق أفخر المشروبات، وكشجرة التنوب نتساءل عن «البعيد عنا» وما ليس في أيدينا، ونحضر الحفلات الموسيقية مجموعات العمل ونحن نقول في أنفسنا «مررنا بهذه الأمور من قبل وانتهينا منها»، فننشغل عنها ونسأل «وماذا بعد؟» وكأننا أدمنّا الخبرات الجديدة، ونحتاج إلى «الشيء الجديد التالي» حتى نشعر بالجدوى.

كان الناس في ثمانينيات القرن العشرين ينظرون بإعجاب لمن يشترك في سباق طوله عشرة كيلومترات، أما الآن فلا يلفت النظر أقل من سباق ماراثون. ولا يقف الأمر عند ذلك، فمن سباق بوسطن إلى نيويورك ثم برلين، ويأتي من يسأل "هل اشتركت في سباق مزرعة كارين بليكسين في كينيا؟ ثم عن سباق الصين بجوار سورها العظيم، فهو الأصعب حقاً. وماذا بعد؟ هل نجرب الاشتراك في سباقات لثلاثة أنواع مختلفة من الرياضة؟ وهل نتطلع إلى الدخول في مسابقة الرجل الحديدي في هاواي؟

ليست اللياقة البدنية وحدها تكفينا، فكلنا يريد أن يكون مثالاً للزوج المساند لزوجه، ووالدًا مثالياً، كما يريد أن يصل في عمله إلى ذروة الأداء، أو يكون مديرًا ناجحاً وقائدًا ملهمًا، مثل الشجرة الصغيرة، كلنا نريد أن نتألق. ولكن من نخاطب بأدائنا؟ هل نريد أن يفخر بنا والدانا؟ هل نريد إثارة إعجاب الأصدقاء؟ هل نسعى لاكتساب احترام مرؤوسينا؟ هل نسعى لمكانة طيبة بين الزملاء؟ أم نرغب في علاوة من رئيسنا؟ في المؤسسات الكبرى ذات القطاعات المتعددة المتداخلة نحاول جميعاً أن نرتقي إلى توقعات فرق العمل المختلفة، والرؤساء، منا، لكننا نادرًا ما نحاول فهم حاجات هؤلاء الذين نسعى لإرضائهم قبل أن نستلم موقعاً جديداً أو موقعاً أرقى، فالثابت الوحيد هو ضرورة تحقيق إنتاجية أعلى.

هذا الثابت الوحيد لا يدعنا ننمو بشكل طبيعي بل نتعجل ونلح. مثل الشجرة في حكايتنا، نريد بشدة أن يقع علينا الاختيار، وأن يسند إلينا مشروعات ذات توقعات نجاح عالية، فنندفع نحوها، ونقدم أداءً متميزًا، وقبل أن ينتهي المشروع نكون قد ارتبطنا باثنين آخرين، وعندما يسألنا الناس «كيف حالكم؟» نسرد لهم قائمة طويلة بالأعمال التي أنجزناها، والأعمال التي نسعى لإنجازها. فنحن نعمل في أثناء «الغداء»، ونراجع الرسائل خلال «فترات الاستراحة»، فإن صادفنا عمل لا وقت عندنا له ونرغب في إنجازه فإننا إما نحشره وسط أعمال أخرى وإما نتركه ونشعر بالذنب تجاهه.

يقول ريتشارد تومكينز الكاتب في جريدة فاينانشيال تايمز: «لسنا في حاجة لوقت أطول: بل لرغبات أقل». كان المرء في المجتمع الزراعي ينشأ ويكبر ويموت في القرية نفسها. وكان من المعقول وقتها أن يسعى الناس إلى تعلم وإنجاز كل ما هو متاح في مجتمعهم. أما اليوم «فقريتنا» هي مكان العمل الكوكبي والملعب الكوكبي أيضًا. وبالرغم من أن الإمكانات لا نهائية، فما زلنا نريد أن نعرف كل شيء ونعمل كل شيء. والأجدر بنا كما يقول تومكينز «أن نغلق الهاتف المحمول، وأن نترك الأطفال يلعبون بحرية، وأن نقرأ أقل، ونسافر أقل، وأن نضع حدوداً لأنفسنا».

ولكن طبيعتنا اللاهثة تدفعنا للتصرف كالأطفال الأشقياء فنطلب المزيد والجديد والأفضل، حتى يهب من داخلنا شيء يقول «كفى!» وإذا لم نكن نملك القوة الداخلية لرسم حدود لأنفسنا فإن الظروف

الخارجية ستجبرنا على ذلك. فثمة شقوق يمكن أن تتسرب منها الأشياء، وليست الأعصاب دائماً تحت السيطرة، وساعتها ستتشوه صورة الولد الذهبي أو البنت الذهبية. وعندها سنواجه تدهوراً في إحدى نواحي حياتنا، كالصحة، أو علاقة إنسانية مهمة، أو عملنا نفسه.

حالة الاجتثاث

«نفذت البلطة إلى قلبها وسقطت الشجرة على الأرض وهي تئن»

عندما حبست الشجرة في المخزن العلوي، توفَّر لها الوقت للتفكير والتأمل واكتساب رؤية أشمل للحياة. ولكنها للأسف لا تتعلم، بل يتملكها الحنين للماضي أو تترك نفسها للخيال.

الانتكاسات الثانوية شائعة في مكان العمل، مثل خيبة الأمل التي تصيبنا عندما لا نوفي المعايير المطلوبة. فكثير منا لا يتجاوز أداؤه الحالي المستوى الذي حققه في الربع الأخير من السنة الماضية، و«ترتفع» مكانتنا أو «تنخفض» مع ارتفاع سلطة رئيسنا وانخفاضها، وننضم إلى فريق العمل أو نستبعد حسب إمكانات السوق الذي نعمل فيه. نسعد عندما نكون في دائرة الضوء ونحزن حين نجد أنفسنا ملحقين بالفريق «ب».

وبعض المشكلات خطيرة فعلاً: بل مدمرة، ولقد مررت، مثل كثيرين غيري، بخبرة الفصل من العمل لتوفير أجور العمالة، وكان شعوري بالظلم طبيعياً. وهناك آخرون يرون بأعينهم أفول نجم مهنهم واندثارها، وهذا شيء مؤلم لمن يحب مهنته ويفخر بها. وقد يشاهد

آخرون مؤسسة كانت شامخة تتدهور بسبب تحولات في السوق أو سوء الإدارة، ويستدعون أيام مجد المؤسسة ويتحسرون عليها. ليس المهم التعثر والوقوع، وإنما المهم كيف نستغل الوقت الذي نقضيه في المخزن العلوي، في التفكير العميق، وإعادة الشمل والتعلم.

التدهور معلم قاس، فهو يخيرنا بين وصفين «مؤد» سابق و«مؤد» في مرحلة راحة وإعداد. أما «السابق» فهو من يقضي السنين يعالج ذاته الجريحة حتى يجف ما عنده. أما المؤدي في مرحلة الراحة والإعداد فيعمق جذوره حتى ينمو إلى أعلى مستوى ممكن. ولا يمكن اكتساب القوة إلا بمواجهة سلوكياتنا: هل كنا نأخذ عملنا بجدية مبالغ فيها حتى نسينا كيف نضحك؟ هل نسينا المغامرة وفقدنا حرارتنا؟ هل اعتبرنا عملنا شيئاً مهماً يحتاج إلى رعاية كطفل، لكنه ليس مقدساً؟ غالباً ما تكون هذه المراجعات مؤلمة، ولكن كل المحاربين أصحاب الخبرة أصابتهم الجروح العميقة فكانت آثارها في أجسامهم إنذاراً يمنعهم من تكرار الخطأ.

صحيح أن «الفشل» يعلمنا دروساً بليغة، لكننا لا ينبغي أن نسعى إليه. وبوسعنا أن نتلافى إخفاقات كثيرة إذا فهمنا ما يعرفه كل رياضي كبير - قد يكون من الضروري الضغط على منظومتنا البدنية والعصبية لتقدم أقصى أداء، لكن الراحة لا تقل عنها أهمية: لذلك نجد أن عدائي الماراثون يرتاحون قبل البطولات الكبرى، وأن أقوى درّاجي «الحلبة الفرنسية» لسباق الدراجات لا يتجاوز جهدهم بعض الدورات (اللفات) التقليدية القليلة حتى يصلوا بالتدريج إلى أقصى

أداء في شهر تموز. ونحن كذلك ينبغي أن نفهم قدراتنا، على المدى البعيد والمدى القريب. وينبغي كذلك أن نفهم أن النمو حتى أقصى الإمكانات يحتاج وقتاً. يقول أنتوني روبنز، وهو متحدث يثير حماس كل من يسمعه أو يقرأ له، في كتابه «أيقظ العملاق الكامن بداخلك»: «يغالي الناس في تقدير حجم ما يمكن أن ينجزوه في عام ويقللون تقديرهم لما يمكن أن ينجزوه في عقد». ولنذكر أن الشجرة لم تكن تطيق صبرًا فضيعت فرصة نموها حتى أعلى مستوى تصله شجرة دائمة الخضرة.

نحن العدّائين الكبار في مضمار العمل. نحترف عملية توليد الضغط وتوجيهه، ولكننا قليلو الخبرة في اغتنام أوقات الراحة والاستعداد: لذلك علينا أن نتعلم كيف نرسم الحدود لأنفسنا ونفهم إيقاعاتنا ونستمتع بالرحلة، ينبغي أن نتوقف عن مواصلة الضغط وأن نحدد لأنفسنا ما يناسبها من سرعة.

وقت للتفكير

«استندت الشجرة إلى الجدار وظلت هناك تفكر وتفكر»

كلنا نحتاج وقتاً نفكر فيه، ولا أقصد بذلك تخصيص المزيد من الوقت لذلك التشتت الذهني المستمر الذي يعزلنا عن الحياة، ولكني أقول إننا نحتاج وقتاً أكبر للتفكير في المسائل العميقة التي تصلنا بالحياة. فإذا عرض لنا أمر لا نقبله فورًا لمجرد أنه سيحسن من مظهرنا الخارجي، بل نفكر هل هذا الأمر يستحق في حد ذاته أن

يأخذ حيزاً في جدول أعمالنا. لابد أن نسال هل نعتبر هذا مهماً لنا بالقدر الذي يدفعنا لبذل أقصى طاقتنا وفكرنا وشبابنا أو آخر سنوات عمرنا في إنجازه؟ وهل سنستمتع ونحن نسعى لإنجازه؟ هل سيثري حياتنا؟ هل سيساعدنا لنحقق الصورة التي نحب أن نرى أنفسنا عليها.

يسعى كثير من الطلاب بجامعة هارفارد إلى التميز والتألق حتى يبلغوا قمة تألقهم قبل الأوان. ولأن العميد هاري ر. لويس على وعي بهذا، فإنه ينصح الطلاب المستجدين بالهدوء ويقول لهم إنهم سيجنون بالتروي خبرة جامعية أكبر مما يجنونها بالتعجل. ولا يقصد العميد لويس بذلك إحباط روح الإنجاز، وإنما يؤكد على أن الطلاب سيتمكنون من مواصلة الجهد والحماس إذا سمحوا لأنفسهم بأوقات فراغ وأوقات يخلون فيها إلى أنفسهم؛ لذا فهو يحذر الطلاب من تكديس جدولهم بأنشطة لن يجدوا الوقت ليفكروا في جدوى الالتزام بها. وهو يؤكد على أن أغلى ما يملكون هو حرية الاختيار، ولا يمكن أن يحتفظوا بهذه الحرية إلا إن تركوا في جداولهم أوقاتاً حرة وشيئاً من المرونة.

مثل أولئك الطلاب، يضع كثير منا جداول عمل شديدة الإحكام حتى لا تكاد تسمح لهم بالتنفس. وثمة شيء يجعلنا نخلط بين حالة الانشغال الدائم والأهمية الشخصية، مما يجعلنا نملأ يومنا كله. ولأننا نحرص على رفع كفاءتنا، نتجاهل السؤال «لماذا؟» ونقفز إلى السؤال «كيف؟».

في وقت سابق عملت مديرة برنامج منتجعات الموظفين التنفيذيين بشركة فرانكلين كوفي. كانت كل دورة تستمر أسبوعًا ويتنقل البرنامج بين عدة منتجعات جبلية. وفي المدة التي يقضيها القادة معنا كنا نتيح لهم وقتاً للتفكير في عملهم، وأدائهم القيادي والتقاليد التي ورثوها في هذا السياق. في اليوم الأول كان المشتركون يستغلون أوقات الراحة بين اللقاءات الدراسية في الاتصال بمكاتبهم، لكن سرعان ما جذبهم منظر الضوء على الجبال وصيد الأسماك في الجداول المائية. في الليلة الأولى كانوا يتناولون العشاء على عجل، ويعملون، ويتصلون بأهلهم، وفي أثناء ذلك تجري عيونهم على العناوين الرئيسة في الصحف، ويردون على الرسائل. لكنهم ما إن استقروا، حتى بدؤوا يتسلقون الجبل حتى رأس مساقط المياه ويتصلون بذويهم في محادثات حقيقية وليست روتينية، أو يجلسون بجوار النار يتبادلون القصص ـ ليست تلك القصص المعدة سلفًا لجذب الانتباه في جماعة العمل، بل قصص عن مواقف جرحوا فيها وعن قدر تألمهم من الجرح، وقصص عن خبرة الاندهاش بمشاعر المرح والسعادة. وفي نهاية الأسبوع، كانوا يشعرون بأنهم أعادوا التواصل مع الطبيعة ومع بعضهم ومع أنفسهم. هدّأت رؤوسهم من سرعتها حتى توافقت معها قلوبهم وعرفوا ما الأشياء ذات الأهمية الحقيقية.

هذه الخبرات «المنتجعية» وما فيها من فرص تأمل تساعد على الانتباه لما هو مهم، لكن أثرها قصير الأمد، إلا أن نجد طريقة نجعل

بها لأنفسنا «منتجعًا مصغرًا»، مكاناً صغيرًا نتأمل فيه ما هو مجدٍ وما يجعل طاقة الحياة فينا تستمر في التدفق.

أحد زملائي يغلق هاتفه في أثناء السفر، ويخصص هذا الوقت للموسيقى. وكثير من العملاء لا يراجعون الرسائل حتى الضحى، ويتيح لهم ذلك وقتاً للاستغراق في أمور مهمة بالفعل. فبعضهم يستنفذ عشر دقائق من وقت الغداء يتأمل فيها أحداث الصباح، ويستجمع طاقته، بدلاً من الاندفاع إلى أنشطة ما بعد الظهر. وكثير منهم يأخذون كلابهم للنزهة ويستغلون هذا الوقت في التفكير في أحداث اليوم، وهناك آخرون لديهم ترتيب ثابت أسبوعي أو ربع سنوي. قالت لي محامية لندنية إنها وزوجها كانا يُستهلكان في العمل ورعاية المسنين، حتى إن كل واحد منهما لم يكن يجد وقتاً يختلي فيه بنفسه أو يجلس فيه مع شريكه. ولأنهما يهوديان فقد بدأا في الالتزام بإجازة السبت، وبهذا توفر لهما الوقت والمكان للراحة وللعلاقات الإنسانية وممارسة الشعائر الدينية. هذا الوقت الأسبوعي أصبح كالواحة في حياتهما. وقال لي مدير سويسري إنه يذهب في رحلة على القدمين مدة يوم كامل يتأمل فيه أداءه، ويفكر فيما يجلب له السعادة، وذلك بعد وصول تقويم أداء العمل ربع السنوي.

كيف تفسح مكاناً تفكر فيه في حياتك؟ كيف توازن بين الضغوط والراحة؟ كيف تصير كائناً بشرياً أكثر منك مؤدياً بشرياً؟

الاتصال بالجوهر

«غداً سأستمتع بحياتي، سأستمتع بكل ما لدي من بهاء»

كلنا كشجرة التنوب نهفو إلى التألق. ولكن عندما نعيش طويلاً على الأطراف، عندما يشتتنا النظر للأضواء المبهرة، فإننا ننفصل عن جوهرنا، حتى إننا عندما نتذوق شراباً يعجبنا لا نستطيع أن نعلن ذلك حتى ننظر إلى غلاف زجاجته. وحتى تعيد التواصل مع جوهرك، ينبغي أن تهتم بقصصك أنت وبأنماطك الخاصة في الحياة. هل تحرص على تثمين ما في يدك وهو مازال في يدك؟ هل تستطيع أن تهدّئ من حركة عقلك وتستمتع بأبسط لحظات الحياة؟ هل تنخرط بكل نفسك في مشروعات إبداعية؟ إن فعلت ذلك فستجني متعة كبيرة من الحياة عجزت عنها الشجرة البائسة.

هذه الشجرة دائمًا ما تفوت على نفسها متع الحياة البسيطة، مثل الإحساس بالنسيم يمر على الوجه أو طعم الماء البارد. ولا تدرك الشجرة أنها فوتت أوقاتاً ممتعة في شبابها بالغابة إلا عندما يقول الفأران الصغيران في دهشة: «لابد أنك كنت سعيدة للغاية». وللأسف لا تلاحظ الشجرة أن في لحظتها الراهنة متعة كبيرة إذ تتحدث مع الفأرين، وترى حماسهما في الاستماع إلى قصص ليلة عيد الميلاد وكلومبي دومبي.

وأريد أن أستطرد للحظة حول قصة كلومبي دومبي. فإن كل الطبعات الإنكليزية تقريباً تترجم التعبير الدنماركي «كلومبي دومبي» إلى «همتي دمتي»، وذلك لتشابه الصوتين، إلا أن هذا التشابه مضلل.

ففي أغنية الأطفال الشهيرة «كل خيول الملك، وكل رجال الملك لم يستطيعوا أن يعيدوا همتي دمتي إلى ما كان عليه»، هذا المخلوق لم يكن ليفوز بفتاة الحكاية قط. أما قصة كلومبي دومبي فيمكن تصنيفها تحت نوع «حكايات المغفلين»: فالبطل في هذه الحكايات عادة ما يكون شخصاً محظوظاً خالي البال وبه سذاجة، يتعثر في أحداث متلاحقة ويتعامل معها برباطة جأش، وتنتهي الحكاية بأن يحصل على الذهب أو يفوز بالأميرة. مثل هذه الشخصية خالية البال من شأنها أن تستمتع بصحبة الفئران، وأن ترد بسخرية أكبر على وقاحة الجرذين. فهو أحمق أو مخادع، يقبل الأمور كما هي ويذكرنا بأن الحياة حلوة. وللأسف انصرف اهتمام الشجرة عن روح الحكاية إلى وقائعها، وبدأت تعيش أوهام الفوز بالأميرة. وبدلاً من أن تستوعب الدرس الحقيقي وتستمتع بصحبة الفئران، تشتت الشجرة اهتمامها وتنخرط في أحلام يقظة عن مستقبل مجيد. فهل نحن نرتكب أخطاء كهذه؟

ما أنماط تفكيرك وسلوكك؟ هل تثمن ما لديك الآن، هنا؟ إن لم تكن تفعل ذلك فثمة طقوس بسيطة يمكن أن تساعد في تنمية تقدير ما في يدك. إحدى صديقاتي المقربات لها ابنة في الثانية من عمرها، وفي كل يوم قبل أن تنام، تسرد هذه الطفلة أسماء كل من تعرف. لم يلقن أحد الطفلة «ليبي» هذا الطقس بل ابتدعته، فهي تنطق كل اسم ببطء وبابتسامة كأنها تعدد ما لديها من نعم. وهناك طريقة أكثر شيوعاً وهي عمل يوميات للاعتراف بفضل الآخرين. وأنا معجبة للغاية بهذه الفكرة، بالرغم من أني عجزت عن تنفيذها.

ولكنني سمعت مؤخرًا عن عادة سهلة، حتى أنا أستطيع اتباعها. كان البرنامج الإذاعي «العقل اللانهائي» يعالج فكرة «الرضا»، وقدم أحد الباحثين فيه أحدث نتائج لدراستين في هذا الموضوع، تبّين منهما أن الناس الذين يخصصون دقيقتين أو ثلاثاً لتسجيل الأشياء التي يرونها ثمينة في يومهم كانوا أكثر إيجابية، وأحسن عشرة، كما كانوا أشد ميلاً لممارسة الرياضة. ولكن هذه العادة لن تفيد إن كانت أسبوعية، لأنها ينبغي أن تكون يومية.

من الخير أن نسترجع أحداث اليوم بنفس راضية، وخير من ذلك أن نستمتع بالأشياء وبالأحداث في وقتها: رائحة القهوة، وطعم البرتقال، وصوت موسيقى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن. ولكن، ليس هذا ما يحدث في أغلب الأحيان، فما إن يزول الانطباع الأول، رشفات القهوة الأولى أو اللقمة الأولى أو القطعة الأولى من أي شيء، حتى نفقد اهتمامنا بما نفعل ولكي نحقق الحضور الكامل في اللحظة الراهنة، يمكننا أن نلجأ لأساليب طالما نجحت من قبل مثل التأمل أو الصمت أو الصلاة أو اليوغا أو التاي تشي (نظام تدريبات تأملية صيني)، فهذه الأشياء تكسب النفس سكينة. والغريب أن أكثر الناس حاجة إليها تمنعهم شدة الملل من الاستمرار في ممارستها. وبالرغم من أننا ندرك قيمتها، فغالبًا ما نجد أنفسنا في حالة إرهاق أو انشغال شديد يمنعنا من المواصلة فننصرف عنها وننهار أمام التليفزيون، نتلقى جرعة البرامج اليومية المعتادة. ولكن هذه السلبية لن تأتي بالسعادة.

ولحسن الحظ، ليست أساليب التأمل هي الوحيدة المتاحة، فثمة طريقة فعالة تصلك بالحياة في هذه اللحظة في مكانك هذا. يعد الانخراط في مشروعات إبداعية واحداً من أنجع الأساليب في ربط الإنسان بحاضره ـ والمشروعات الإبداعية هي الأشياء التي ترى أنها تستحق الجهد لأنها توسع حدودنا وتنمي قدراتنا. فرعاية الأبناء مجال ثري إذا اعتبرناه مشروعاً إبداعياً. ويعتبر كثير منا أن العدو ولعب اغولف والغناء والرسم ورعاية الحدائق، مجالات تجذب كامل الاهتمام. كان أحد مشاريعي أن أتم رحلة طولها مئة ميل على الدراجة. كنت أتدرب في جبال سانتا مونيكا، وكنت أضغط على نفسي بأقصى ما أستطيع. فكنت أتسلق المنحدر ثم أنطلق من أعلى إلى أسفل نحو طريق مولهاند، وأنا أراقب بكل حذر الصخور والفجوات من حولي. وما إن تستقر حركة الدراجة على طريق باسيفيك كوست المستوي، وتنتهي الصعوبة حتى يذهب فكري بعيداً إلى طريق دراجات آخر أو إلى مشكلة في عملي. ولكن ذلك لا ينفي أنني كنت منخرطة تماماً ولمدة طويلة في هذا النشاط الذي ملأني حياة وحيوية.

من الطريف أن الناس، في الأغلب الأعم، يقصون حكايات عن مشاعر السعادة والحيوية و«التدفق» التي يجدونها في العمل، كما تقول لنا ميهالي تشيكتز نميهالي، مؤلفة كتاب «التدفق». وتفسير ذلك أننا في البيت غالبًا ما نكون سلبيين أو نؤدي أنشطة روتينية، بينما يتيح لنا العمل فرصاً أكبر لأن نفعل أشياء جديدة أو صعبة أو

إبداعية. فنحن أقرب إلى الشعور بتدفق الحياة عندما ننشئ علاقة مع رؤسائنا تسمح بقدر من الاستقلالية والتنوع والمرونة. لذلك فليست كل المشاريع سواء. عندما نختار من بين مشروعات عدة، ومعيارنا الوحيد هو السؤال: أيها سيحقق القدر الأكبر من التقدير، ستكون حياتنا مع هذا المشروع أقرب إلى السطح، أما إذا كان الاختيار مبنيًا على أساس أيها أقرب إلى نفوسنا وأيها يشبعنا، فإننا سندخل إلى الأعماق ونعيد التواصل مع جذورنا وبهذا نجعل الطاقة تتدفق بحرية.

إن الاختلاف شاسع بين الحياة على السطح والارتباط بالجذور. فالشجرة مشغولة دائمًا، تفكر فيما قد يحدث أو تسترجع شيئاً مضى. وهكذا فهناك دائمًا شيء يزعجها ويمنعها من الاستمتاع بمتع الحياة البسيطة، بل يمنعها من أن تعيش ليلة بهائها. هذه الشجرة لم تعش مطلقاً، وهذا ما يجعل زفرتها في النهاية زفرة مأساوية. ولحسن الحظ، لسنا مضطرين لارتكاب الخطأ نفسه، لسنا مضطرين أن نهدر اهتمامنا وطاقتنا في أشياء تزعجنا، أو في كل ما من شأنه أن يجعلنا ساخطين على حياتنا. خيرٌ من ذلك أن ننخرط في الحياة وأن «نسلم» أنفسنا لشيء نرى أنه يستحق الإنجاز. ساعتها، ستكون زفرتنا الأخيرة تعبيرًا عن الرضا العميق وعن ثقة بأننا عشنا الحياة.

نقاط تستحق التفكير

ـ ما مشروعاتك الإبداعية؟ ما الأشياء التي توسع حدودك وتنميك؟

ـ كيف تفسح المجال للراحة والتجدد؟

نقاط تناقشها مع زملائك

ـ متى نكون منخرطين تماماً فيما نفعل؟ متى نشعر بحالة التدفق؟

ـ ماذا نفعل لنسمح بتنوع أكبر، وتحديات أجدى، وتجريب أوسع في عملنا؟



6

حكاية

العندليب

«عندما نعشق، نحيا الحياة بحق»



العندليب قصة عن عشق الحياة، أبطالها عندليب ساحر، وإمبراطور متسلط، وموسيقي معتز بنفسه، وحاشية رهن الإشارة. وبهذه الشخصيات تطرح القصة سؤالين مهمين:

- ما أهم ما في عملك؟

- ما الشيء - أو الأشياء - التي لها أكبر قيمة عندك؟

يدفعنا هذان السؤالان إلى التفكير في الأسلوب الذي نتبعه في عملنا: فهل نولي أكبر تقديرنا لسلطة المنصب أو الخبرة وليس للأشياء أو الأشخاص الجديرين بها حقاً؟ وهل نثق بالعقل على حساب العاطفة، ونحترم البيانات أكثر من حدسنا؟ وهل نفضل أداءً تقليدياً على أداءٍ مدهش؟

ما الشيء الذي يجعلك تريد أن تغني من كل قلبك؟ موضوعنا هنا هو الدافع. أغلب شخصيات الحكاية يغريها الذهب والألقاب والتصفيق: لذلك يغدق الإمبراطور عليها امتيازات وشباشب ذهبية وألقابًا، أما العندليب فينهل قوته من الطبيعة ومن جدوى ما يعمل ومن المودة والحرية، وليس للإمبراطور سلطان على أي منها. وهنا مكمن الصراع الرئيس في الحكاية وفي الحياة العملية لكثير من الناس.

وبينما تقرأ الملخص التالي ـ أو الحكاية الكاملة إن شئت ـ أدعوك للتفكير في هذه الأسئلة: ما الذي سرك في الحكاية؟ وما الذي شغل اهتمامك؟ هل ذكرتك بعنادل أخرى، أو أباطرة، أو أساتذة موسيقى في مسيرة عملك؟



ملخص الحكاية

كان قصر الإمبراطور الصيني من أرق أنواع البورسلين، وكان في حديقته زهور مدهشة مربوط بها أجراس دقيقة. كل شيء كان مرتباً ببراعة في دنيا الإمبراطور.

وكان في الغابة عندليب ساحر الشدو يمس غناؤه قلوب العمال، وكان الزائرون يكتبون الكتب والقصائد عن القصر العظيم والحديقة والعندليب.

وذات يوم كان الإمبراطور يقرأ أحد هذه الكتب حتى وصل إلى هذه الجملة: «ولكن العندليب كان الأروع بلا شك». فصاح: «ما هذا؟» وأمر أن يؤتى بالعندليب ليشدو بأغانيه في القصر تلك الليلة، وإلا جلد الجميع على بطونهم بعد العشاء مباشرة.

انطلقت حاشية القصر في كل ركن، فلم يكن أحد منهم قد سمع عن هذا الطائر. وأخيرًا وجدوا خادمة صغيرة في المطبخ تستطيع أن تدلهم عليه. وفي الطريق كان أفراد الحاشية يعجبون بخوار البقرة ونقيق الضفدع ظنًا منهم أنها أغنية العندليب. حتى رأوا الطائر الصغير البسيط وقدموا إليه «دعوة» الإمبراطور.

وفي تلك الليلة، في القصر، شدا العندليب بأغنيات ساحرة جعلت الدموع تسيل من عيني الإمبراطور على خديه. تأثر الإمبراطور بهذا الغناء حتى أراد أن يهدي شبشبه الذهبي إلى العندليب ليعلقه في عنقه: لكن العندليب رفض وقال: إن دموع الإمبراطور هي أغلى مكافأة.

أصـر الإمـبـراطـور أن يبـقى العنـدليـب في القـصـر. وهكـذا «مُنـح» الطائر قفصًا ذهبيًا واثني عشر خادمًا يسهرون على راحته، بالإضافة إلى «حرية» المشي في الخارج مرتين يوميًا.

وبعد مدة، أرسلت للإمبراطور هدية، كانت عندليباً صناعياً من الذهب والجواهر، وكان يستطيع أن يردد الأغنية نفسها ثلاثاً وثلاثين مـرة دون أن يتـعب، فحـاز إعـجـاب الجـمـيـع فـورًا. في هذه الأثناء فـر العندليب الحيّ من النافـذة المفـتـوحـة. وغـضـب الإمـبـراطـور بشـدة لهروبه، فأصدر قرارًا بنفيه من ملكه.

أكد أسـتـاذ الموسيـقى سـاعـتـهـا للجـمـيـع أن الطائر الأفـضل مـازال عندهم، ووافقه الجميع على ذلك. حاز العندليب الآلي مكانة الشرف على مـائدة عـشـاء الإمـبـراطـور. وفـي إحـدى الليـالي، وبيـنمـا كـان هذا العندليب يغني انقطع شيء داخله وتوقفت الموسيقى. أصلح السـاعـاتي الطائر، لكنه لم يعد بإمكانه الغناء إلا قليلاً.

مرت خمس سنوات، كـان الإمبراطور على فراش الموت وحيدًا، فقد تم اخـتـيـار إمـبـراطور جـديد فـهـرع إليـه الجـمـيـع ليـحـيـوه. لم يكد الإمبراطور العجوز يستطيع التنفس لأن الموت كان جـاثماً على صدره، وحـول فـراشه ظهرت وجوه غـريبـة أصـواتهـا الخـفـيـضـة تعـدد حـسنات الإمـبـراطور وسـيـئـاته. وكـان الإمـبـراطور في كرب شـديد حـتى صـرخ منادياً أن يقوم أحد بتشغيل الطائر الذهبي ليسمع غناءه، ولكن لم يكن هناك أحد.

وفجأة صدرت أجمل الأغاني من جهة النافذة، فقد استجاب العندليب الحقيقي لصرخة ألم الإمبراطور، وجاء ليؤنسه، وشيئاً فشيئاً اختفت الوجوه الغريبة، وانصرف الموت خارجاً من النافذة، وحظي الإمبراطور بنوم هادئ طوال الليل.

وفي الصباح طلب الإمبراطور من العندليب البقاء في القصر فرفض العندليب، لكنه وعد أن يأتي كل ليلة ويغني للإمبراطور حتى يكون سعيداً ومراعياً للآخرين، ثم طار العندليب.

ما لبث الخدم أن جاؤوا ليلقوا نظرة على إمبراطورهم الراحل. وتصوروا دهشتهم عندما وجدوه في كامل عافيته، فوقفوا مشدوهين حين كان الإمبراطور يلقي عليهم تحية الصباح.

هل تعلم...؟

هل كنت تعلم...استوحى أندرسون هذه القصة من حدثين: افتتاح حدائق تيفولي في كوبنهاغن، ولقاء المغنية العظيمة جيني لند، وكانت مشهورة في زمانها بعندليب السويد.

تم افتتاح حدائق تيفولي في أغسطس عام 1843، وكانت مكانًا ساحرًا به نماذج لمعابد الباجودة متعددة الأدوار، وفوانيس ملونة، وطواويس وألعاب نارية وبحيرات وأزهار ومطاعم ومسارح وجولات ترفيهية. وفي الشهر التالي قابل أندرسون جيني لند عندما كانت تقدم أول عروضها في كوبنهاغن. وقد صارت فيما بعد محبوبة الجماهير في فيينا، تشرب الشاي مع الملكة فيكتوريا في لندن، وتقوم بجولة في الولايات المتحدة.

في أول الأمر لم يكن أندرسون يرى جمالاً في لند، ولكن عندما سمعها تغني أسرته حتى هام بها. ولأنه رومانسي حقيقي، كان يفضل الشعور بحالة الحب أكثر من ممارسة علاقة حب البالغين. وحتى عندما عرض الزواج على لند، في خطاب، حرص على ذكر عدة أسباب جعلتها لا تراه مناسباً. إذ لم تكن لند تكن تهتم به عاطفيًا بل كانت تعتبره أخاً.

تم إنجاز قصة «العندليب» في فورة مدهشة من النشاط، إذ كتب أندرسون في يومياته ليوم 11 أكتوبر من عام 1843: «بدأت الحكاية الخرافية الصينية في حدائق تيفولي»، وفي الليلة التالية كتب: «تناولت عشائي في البيت، تحدثت، أنهيت الحكاية الصينية».

كان أندرسون نادرًا ما يضمن قصة «العندليب» في قراءاته العلنية. لكن مراسلاته تشير إلى أنه قرأها على جمهور في عام 1852 خلال واحدة من زياراته العديدة إلى فايمر بألمانيا، وكانت هذه هي الحكاية الأثيرة لدى الموسيقار فرانز ليست.

الحكاية الكلاسيكية

في الصين، كما تعرفون، يكون الإمبراطور صينياً، وكل من حوله كذلك صينيون. وقعت أحداث هذه القصة منذ سنوات بعيدة، وهذا ما يجعلها تستحق أن تروى، قبل أن يطويها النسيان. كان قصر الإمبراطور الأفخم في العالم، إذ كان كل ما فيه مصنوعًا من البورسلين الرقيق الثمين، لكنه كان هشاً حتى إن كل من فيه كانوا يلمسون كل شيء بحرص شديد. وكان في الحديقة أزهار تخلب الألباب، وبجوار هذه الروائع ربطت أجراس فضية تدق، حتى إذا مر أحد بها لم يغفل عنها. أجل، كان كل شيء مرتباً بعناية في حديقة الإمبراطور.

كانت الحديقة واسعة تمتد في كل اتجاه حتى إنها نفسها لا تعرف حدودها. فإذا واصلت السير فيها وصلت إلى أجمل غابة، ذات أشجار باسقة وبحيرات عميقة. كانت الغابة تمتد حتى البحر الأزرق العميق: فكانت السفن الكبيرة تبحر تحت فروع الأشجار تماماً. وكان يعيش في تلك الأغصان عندليب يشدو بأعذب الألحان، حتى إن أفقر الصيادين، وأكثرهم انشغالاً، كان يتوقف ويستمع إليه وهو يسحب شبكته ليلاً ويقول: «يا إلهي! ما أعذب صوته!» ثم يواصل عمله وينسى أمر الطائر. وفي الليلة التالية، عندما يعاود العندليب غناءه ويعود الصياد إلى البحر، كان يقول الشيء نفسه: «يا إلهي! ما أعذب صوته!».

من كل بلاد الدنيا يأتي المسافرون إلى مدينة الإمبراطور، وكانوا يعجبون بالمدينة وبالقصر وبالحديقة. لكنهم كانوا إذا ما سمعوا العندليب يقولون جميعاً الشيء نفسه: «هذا هو الأروع على الإطلاق».

وكان المسافرون يتحدثون عن ذلك عندما يعودون لأوطانهم. وكتب المتعلمون منهم كتباً كثيرة عن المدينة والقصر والحديقة، لكنهم لم ينسوا العندليب قط، فقط كان على رأس القائمة بلا منازع، ومنهم من كان يكتب الشعر فألف أجمل القصائد، كلها عن العندليب الذي يسكن الغابة التي بجوار البحر العميق.

لفت الكتب الدنيا، حتى إن بعضها وصل إلى الإمبراطور الذي كان جالساً على عرشه الذهبي يقرأ ويقرأ. وكان يهز رأسه موافقة طوال الوقت، فقد أسعده الوصف الباهر لمدينته وقصره وحديقته، حتى وصل إلى جملة: «ولكن العندليب هو الأروع». قال الإمبراطور: «ما هذا العندليب؟ أنا لا أعرفه على الإطلاق! هل ثمة طائر في إمبراطوريتي؟ بل في حديقتي؟ لم أسمع بهذا قط، وما كنت لأعرفه لولا أن قرأت عنه!»

ثم نادى حاجبه، وكان مترفعاً لدرجة أن كل من يخاطبه ممن دونه لم يكن بمقدوره أن يتم كلمة لها معنى أمامه.

قال له الإمبراطور: «يقال إن طائراً مدهشاً يعيش هنا يسمى عندليباً، ويقال إنه أروع ما في إمبراطورتي. فلماذا لم يحدثني عنه أحد قط؟»

قال الحاجب: «لم أسمع به من قبل ولم يأت إلى البلاط قط».

قال الإمبراطور: «لابد أن يأتي الليلة هنا ويغني لي: فالدنيا كلها تعرف أنه عندي وأنا لا أعرفه».

قال الحاجب: «أنا لم أسمع به من قبل ولكني سأبحث عنه وسأجده».

ولكن أين يجده؟ أسرع الحاجب وذهب إلى كل مكان في القصر، أعلى وأسفل في القاعات والدهاليز ولم يكن أحد ممن قابله قد سمع بالعندليب. وأسرع الحاجب عائدًا إلى الإمبراطور وقال له إن العندليب ربما يكون أسطورة اختلقها من يكتبون الكتب: «لا ينبغي لجلالتك أن تصدق كل ما يكتب، فكله محض اختلاق، يسمى بالفن الأسود».

قال الإمبراطور: «لكن الكتاب الذي كنت أقرأ فيه أرسله إليّ إمبراطور اليابان العظيم، لا يمكن أن يكون تلفيقاً. سأسمع العندليب! وسيكون عندي الليلة وسأمنحه أعلى الامتيازات. وإذا لم يأتني فسيجلد كل من في القصر على بطنه بعد العشاء مباشرة».

قال الحاجب بالصينية: «تسنغ بي». وجرى مرة أخرى صاعداً درجاً وهابطاً آخر إلى كل القاعات والدهاليز وتبعه نصف من في القصر فقد كانوا يخشون أن يجلدوا على بطونهم. كلهم كانوا يسألون الدنيا كلها عن العندليب المدهش، ولم يكن أحد في البلاط يعرفه.

وأخيرًا وصلوا إلى فتاة صغيرة فقيرة في المطبخ قالت : «يا ربي! العندليب؟ أعرفه جيداً، إنه بارع الغناء، و إني أسمعه في كل ليلة يسمح لي أن آخذ بعض بقايا الطعام إلى بيتي حيث أمي الفقيرة المريضة التي تعيش بجوار الشاطئ. وعندما أعود من هناك متعبة من السير أستريح في الغابة، وساعتها أسمع العندليب يغني، حتى تجري الدموع من عيني وأشعر كأن أمي تقبّلني».

أعلن الحاجب أن فتاة المطبخ الصغيرة ستمنح منصباً دائماً في المطبخ «وسيسمح لها أن ترى الإمبراطور وهو يأكل، إن هي قادتنا إلى العندليب، الذي يستدعيه الإمبراطور الليلة».

وانطلق نصف من في القصر إلى الغابة، حيث يغني العندليب عادة، وفي الطريق سمعوا بقرة تخور فقالوا «ها قد وجدناه: إن هذا المخلوق الصغير له قوة كبيرة، ولقد سمعناه من قبل بالتأكيد».

قالت عاملة المطبخ الصغيرة: «مازلنا بعيدين عن المكان... كانت تلك بقرات تخور».

ثم علا صوت نقيق الضفادع في البركة. قال حاجب القصر: «مدهش! أنا أسمعه الآن، صوته مثل صوت أجراس صغيرة». قالت فتاة المطبخ الصغيرة: «كلا، هذه ضفادع، لكن أظن أننا سنسمع العندليب قريبًا».

ثم بدأ العندليب شدوه: فقالت الفتاة: «هاهو! أنصتوا، أنصتوا، ها هو!» وأشارت إلى طائر رمادي صغير بين الأغصان.

قال الحاجب: «هل هذا معقول؟ لم أكن أتصوره بهذا الشكل قط. إنه بسيط جداً، لابد أنه فقد ألوانه لكثرة من قابلهم من الشخصيات المهمة».

قالت فتاة المطبخ بصوت عالٍ: «أيها العندليب الصغير، إن إمبراطورنا المحبوب يود بشدة أن تغني له».

قال العندليب: «على الرحب والسعة». وغنى غناءً ساحرًا. قال الحاجب: «إنه كأجراس زجاجية، انظروا إلى عنقه الضئيل وكيف يستخدمه، غريب أننا لم نسمعه من قبل، إنه سيلقى نجاحاً كبيراً في البلاط».

قال العندليب: «هل سأغني للإمبراطور مرة أخرى؟» فقد كان يظن أن الإمبراطور قد جاء معهم.

قال الحاجب: «أيها العندليب الصغير الرائع، يسرني للغاية أن أدعوك إلى احتفال في بلاط الإمبراطور الليلة حيث ستشنف أذن عظمة الإمبراطور بأغنيتك الساحرة».

قال العندليب: «إن أغنيتي تكون أجمل في الفضاء المفتوح في الغابة الخضراء». لكنه وافق على الذهاب معهم عندما علم أن الإمبراطور يريده.

كان كل شيء في القصر قد تم تلميعه، وكانت الجدران والأرضيات المصنوعة من البورسلين تعكس ضوء آلاف المصابيح الذهبية، أما الممرات فقد وضعت فيها أجمل الأزهار ذات الأجراس الدقيقة، وكان

العاملون في البلاط يجرون هنا وهناك حتى إن الهواء الذي يثيرونه يحرك الأجراس فتحدث رنيناً لا يستطيع المرء بسببه أن يسمع نفسه وهو يفكر.

وفي وسط القاعة الكبرى، حيث كان الإمبراطور يجلس، تم وضع محط ذهبي للعندليب، وكان كل من في القصر موجوداً هناك، وسمح لخادمة المطبخ الصغيرة أن تقف وراء الباب فقد نالت الآن لقب «خادمة مطبخ حقيقية». كان الجميع قد ارتدوا أبهى حللهم، وكانت أنظارهم تتعلق بالطائر الرمادي الصغير الذي هز له الإمبراطور رأسه ليبدأ شدوه.

غنى العندليب غناءً ساحرًا، حتى إن الدموع ملأت عيني الإمبراطور وسالت على خديه، ثم غنى العندليب غناءً أشد عذوبة فمس شغاف القلوب. أخذت النشوة الإمبراطور وقال إنه سيمنح العندليب شبشبه الذهبي ليعلقه في عنقه، لكن العندليب لم يقبل ذلك بل شكر الإمبراطور وقال إنه نال مكافأته بالفعل:

«لقد رأيت الدموع في عيني الإمبراطور، وهذا أغلى الكنوز: فدموع الإمبراطور لها قوة غريبة، يعلم الله أني نلت مكافأتي». ثم عاود الغناء بصوته العذب السماوي.

قالت النسوة الحاضرات: «هذا أشجى ما يحرك القلوب». ثم وضعن الماء في أفواههن حتى يشبه صوتهن الطيور عندما يتحدثن إلى الناس، إذ اعتقدن أنهن عنادل أيضًا. حتى أدنى الخدم والخادمات

أعلنوا سعادتهم بغناء العندليب، وهذا أمر مهم لأنهم أصعب من يمكن إرضاؤه. لقد حقق العندليب بالفعل نجاحاً مؤكدًا.

تقرر أن يبقى العندليب في البلاط، ويكون له قفصه وحرية الذهاب للتنزه مرتين نهارًا ومرة ليلاً ، كما منح اثني عشر خادمًا لمرافقته. وكان كل واحد منهم قد ربط خيطًا حريريًا بأحد رجلي العندليب يمسكه منه بخفة. ولكن لم تكن هناك أي متعة في تلك النزهة.

كانت المدينة بأسرها تتحدث عن الطائر المدهش، وعندما كان يتقابل اثنان كان أحدهما يقول «عند» ويقول الآخر «دليب» مع زفرة ويفهم كل منهما الآخر. بل إن أحد عشر طفلاً من أطفال الجزارين قد تسموا باسمه بالرغم من أنهم جميعًا لا يحسنون نغمة واحدة.

وذات يوم تلقى الإمبراطور طرداً كبيراً كتب عليه من الخارج «عندليب».

قال الإمبراطور: «ها هو كتاب جديد عن طائرنا الشهير»، ولكن لم يكن في الصندوق كتاب: بل قطعة فنية صغيرة ـ عندليباً اصطناعياً يشبه العندليب الحقيقي غير أنه مغطى بالألماس والياقوت الأحمر والأزرق. وما إن يدار مفتاح زنبرك الطائر الاصطناعي حتى يغني أحد ألحان الطائر الحقيقي و يتحرك ذيله إلى الأعلى وإلى الأسفل، وهو يتلألأ بفضته وذهبه. وكان حول عنقه شريط صغير كتب عليه «عندليب إمبراطور اليابان رخيص بالمقارنة مع عندليب إمبراطور الصين».

كانت «هدية رائعة» كما قال الحاضرون حتى منح من أتى بها لقب «جالب العندليب الإمبراطوري السامي».

«والآن لابد أن يغنيا معًا: فسيكونان ثنائياً جميلاً». وقد كان، لكن الأمر لم يسر سيرًا حسنًا، لأن العندليب الحقيقي كان يغني بطريقته الخاصة بينما كان الطائر الاصطناعي يعمل بأسطوانات آلية.

قال أستاذ الموسيقى: «ليس هذا خطأ الاصطناعي: فهو يتبع إيقاعًا زمنيًا ثابتاً يتوافق مع نظامي». وهنا سمح الإمبراطور أن يغني الطائر الاصطناعي وحده. وكان أداؤه لا يقل عن أداء الطائر الحقيقي وكان منظره أجمل، إذ يلمع مثل قطع الحلي من أساور ودبابيس.

غنى الطائر الاصطناعي اللحن نفسه ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يتعب. ورحب الناس بسماعه مرة بعد مرة، ولكن الإمبراطور أراد أن يغني العندليب الحيّ ولو قليلاً. ولكن أين ذهب؟ لم يلحظ أحد أنه طار من النافذة المفتوحة وذهب إلى غابته الخضراء.

قال الإمبراطور: «كيف يفعل هذا؟ وألقى كل أهل البلاط باللوم على العندليب وقالوا إنه مخلوق جاحد».

ثم قالوا: «مازال عندنا الطائر الأفضل». ثم كان على الطائر الاصطناعي أن يغني مجددًا، وللمرة الرابعة والثلاثين، كان اللحن نفسه، ولكن لم يتمكن أحد من حفظه لأنه كان لحنًا دقيقاً وصعباً. امتدح أستاذ الموسيقى الطائر مديحًا كبيراً وقال إنه خير من العندليب الحقيقي، ليس لمظهره فقط وما عليه من ماسات كثيرة رائعة، بل لأنه

أفضل منه مظهراً ومخبراً. «فكما ترون أيها السادة والسيدات، وقبلكم عظمة الإمبراطور، مع العندليب الحقيقي لا يعرف المرء ماذا سيحدث، أما مع الطائر الاصطناعي كل شيء محدد، ونعرف ما سيكون ولا اختلاف. إذ يمكن تفسير كل شيء، ويمكن أن نفتحه ونرى عمل العقل البشري، وكيف وضعت الأسطوانات الموسيقية وكيف تدور وكيف تتحرك ونرى أن كل شيء يلي الآخر».

قال الجميع: «هذا نراه بكل تأكيد». وفي يوم الأحد التالي سمح لأستاذ الموسيقى أن يعرض الطائر على الناس، فقد قال الإمبراطور إن الناس لابد أن يسمعوه، وسمعه الناس، وأطربهم غناؤه وكأنهم جميعاً قد أفرطوا في شرب منقوع الشاي، وهو مشروب صيني تقليدي. صاح الجميع: «ياه!» ورفعوا الإصبع السبابة نحو السماء ثم أومؤوا برؤوسهم موافقة. ولكن صياد السمك الفقير الذي سمع العندليب الحقيقي قال: «صوته جميل، ويشبه العندليب، لكن ينقصه شيء لا أعرف ما هو».

صدر قرار بنفي العندليب من البلاد، واحتل الطائر الاصطناعي مكانه على الوسادة السندسية قريبًا من سرير الإمبراطور وحوله كل ما تلقى من هدايا من الذهب والجواهر. وارتقى في الألقاب حتى صار «المغني السامي لسرير الإمبراطور ومائدته». و كان مقامه في المكان الأول على يسار الإمبراطور، وكان هذا أعلى مكان عند الإمبراطور لأنه الأقرب إلى جهة قلبه. كتب أستاذ الموسيقى خمسة

وعشرين كتاباً عن الطائر الاصطناعي، وكانت كتبًا ضخمة ورفيعة الثقافة وقد استخدم فيها أصعب الكلمات الصينية. وقال الناس إنهم قرؤوها وفهموها، وإلا اعتبروا أغبياء وضربوا على بطونهم.

استمر هذا الحال عاماً كاملاً، كان الإمبراطور وبلاطه وكل الصينيين قد حفظوا عن ظهر قلب كل نغمة يرددها الطائر الاصطناعي. وكان هذا هو السبب في حبهم له كل هذا الحب، إذ كان يمكنهم الغناء معه، وكانوا يفعلون. حتى صعاليك الشارع كانوا يرددون: «زيزيز زيزي، كلاك، كلاك، كلاك» وكان الإمبراطور يغنيها، لقد كانت أغنية رائعة بالفعل.

وذات ليلة، كان الطائر الاصطناعي يغني والإمبراطور في سريره يستمع، وفجأة صدر صوت غريب وحركة داخل الطائر كأنها نتاج فرقعة: انفصلت كل التروس عن بعضها وتوقفت الموسيقى.

انتفض الإمبراطور من سريره وأمر بحضور طبيبه الشخصي، ولم يجدِ ذلك نفعاً. ثم أحضر صانع الساعات، وبعد فحص وحديث طويل، لم يستطع إلا أن يعيد تركيب الطائر. لكنه نصح بعدم تشغيل الطائر إلا قليلاً لأن أسنان التروس كانت متآكلة، ولا يمكن تبديلها بطريقة تضمن استمراره في إصدار الموسيقى. كان ذلك أمراً محزناً للغاية، إذ لم يكن الطائر يعمل إلا مرة واحدة كل عام وحتى ذلك كان يضر به. لكن أستاذ الموسيقى ألقى خطاباً قصيراً به كل الكلمات الصعبة قال فيه إن الطائر عاد سليماً كما كان.

مرت خمس سنوات والبلد كله يعاني حزنًا بالغاً، لأن الشعب كله بالرغم من كل شيء كان يحب إمبراطوره حباً شديداً، وقد قيل إن الإمبراطور مريض ولن يعيش طويلاً. وتم اختيار إمبراطور جديد بالفعل، لكن كان الناس يقفون في الشوارع ويسألون الحاجب عن حال إمبراطورهم فيهز رأسه ولا يزيد قوله عن «بـ...!».

كان الإمبراطور يرقد شاحب اللون يشعر بالبرد في سريره العظيم الفاخر. ظن كل من في القصر أنه مات، فهرعوا لتحية الإمبراطور الجديد. تحدث صغار الخدم عن ذلك، واجتمعت خادمات الغرف في مجالس لشرب القهوة. وتم بسط القماش على الممرات وفي القاعات حتى لا يسمع صوت الأقدام، فساد الجو سكون عميق. ولكن الإمبراطور لم يمت حتى الآن. كان في سريره الضخم متصلباً وشاحباً فوقه ستائر مخملية طويلة تنتهي بشراشيب ذهبية ثقيلة. وكان في أعلى الغرفة نافذة مفتوحة يدخل منها ضوء القمر ليلف الإمبراطور والطائر الاصطناعي.

لم يكن الإمبراطور المسكين يستطيع التنفس وكأن شيئاً يجثم على صدره، وعندما فتح عينيه رأى أن الموت هو الذي يجثم فوق جسده وقد ارتدى تاجه الذهبي وأمسك سيفه في إحدى يديه، وفي يده الأخرى لواءه الأخاذ. ومن بين ثنايا الستائر المخملية الفخمة، ظهرت حول الإمبراطور وجوه غاية في الغرابة تنظر إليه، بعضها بشع و وبعضها الآخر سمحُ الطلعة، كانت تلك حسناته وسيئاته، فالموت كان جاثمًا على قلبه.

همس كل وجه للآخر "هل تذكر ذلك؟ وتكرر السؤال «هل تذكر ذلك؟» كلمته الوجوه كثيرًا حتى تصبب العرق من جبينه.

قال الإمبراطور: «لم أكن أعرف هذا قط. إليّ بالموسيقى، الموسيقى، الموسيقى، اقرعوا الطبول الصينية الضخمة حتى لا أسمع ما يقولون».

لكنهم استمروا، والموت يهز رأسه موافقاً، بالطريقة الصينية.

صرخ الإمبراطور: «الموسيقى، الموسيقى»، أيها الطائر الصغير المبارك غنِ، غنِ! فلقد منحتك الذهب والكنوز، بل وعلقت شبشبي الذهبي حول عنقك، هيا غنِ، غنِ!

لكن الطائر ظل ساكنًا، فلم يكن هناك من يشغله، ولم يغنِ. هذا والموت يحدق في الإمبراطور بعينيه الكبيرتين الفارغتين، كان الموت هادئاً هدوءاً مخيفاً.

في تلك اللحظة تماماً جاء صوت أحلى الأغاني من النافذة. كان العندليب الحقيقي الصغير جالساً على غصن الشجرة، وكان قد سمع بحاجة الإمبراطور للموسيقى فجاء ليغني له أغاني الطمأنينة والأمل. وحين بدأ العندليب يغني، أخذت الوجوه تشحب شيئاً فشيئاً من فوق الستائر، وأخذت الدماء تتدفق متسارعة في أطراف الإمبراطور الواهنة، وحتى الموت نفسه أخذ يقول «استمر في الغناء أيها العندليب! استمر!»

رد العندليب: «نعم سأفعل، إذا أعطيتني السيف الذهبي الرائع، وإذا أعطيتني اللواء الرائع، وإذا أعطيتني تاج الإمبراطور».

فأعطاه الإمبراطور كل تحفة مقابل أغنية، واستمر العندليب في الغناء. غنى عن مقابر دار العبادة حيث تنمو الورود البيضاء، ويعبق الهواء برائحة ثمر البلسان، وحيث يروى النجيل الجديد بدموع الثكلى. وعندها اشتاق الموت لبستانه، وانصرف من النافذة كسحابة بيضاء من الضباب البارد.

قال الإمبراطور: «أشكرك أشكرك، أيها الطائر السماوي الصغير. أنا أعرفك جيداً، فلقد طردتك من ملكي، ومع ذلك جئت لتطرد بغنائك الرؤى الشريرة من فراشي، وأزحت الموت عن قلبي، فكيف أكافئك؟»

رد العندليب: «لقد كافأتني بالفعل عندما زرفت لي دموعك في أول مرة غنيت لك. لن أنسى ذلك أبداً، فهذه هي الجواهر التي تمس القلوب. لكن عليك الآن أن تنام لكي تتعافى، سأغني لك».

غنى الطائر، فاستغرق الإمبراطور في نوم هانئ هادئ معافى. وعندما استيقظ كان ضوء الشمس الآتي من النافذة يغمره حتى تعافى واسترد صحته. لم يكن أحد من خدمه قد عاد إذ ظنوا أنه قد مات، وكان العندليب لا يزال على غصنه يغني.

قال الإمبراطور: «لابد أن تبقى معي أبداً، ولن تغني إلا عندما تشاء، وسأكسر الطائر الاصطناعي ألف قطعة».

قال الطائر: «لا تفعل ذلك، فقد فعل ما في وسعه من خير، فاستبقه، أما أنا فلا يمكن أن أبني عشاً وأعيش داخل القصر، فاسمح لي أن أتيك عندما أريد ذلك، ساعتها سآتي في المساء وأقف على الغصن بجوار النافذة، وأغني لك حتى تسر نفسك وينشط فكرك، سأغني عن السعداء وعن الذين يتألمون، سأغني عن الشر وعن الخير المحجوب عنك: فالطائر الشادي الصغير يطير بعيداً حتى مكان صياد السمك الفقير، ويقف على سطح بيت المزارع، ويصل إلى كل ما هو بعيد عنك وعن بلاطك، وأنا أحب قلبك أكثر من تاجك، بالرغم مما يحيط بالتاج من قداسة. سآتي وأغني لك، ولكن ينبغي أن تعدني بشيء واحد».

قال الإمبراطور: «كما تشاء». ووقف في عباءته الإمبراطورية التي ارتداها بنفسه ورفع سيفه الذهبي بمحاذاة قلبه.

قال الطائر: «لا أسألك إلا شيئاً واحداً؛ لا تخبر أحداً عن الطائر الصغير الذي يعلمك بكل شيء، ساعتها سيكون كل شيء على ما يرام».

وطار العندليب بعيدًا.

وعندما جاء الخدم أخيرًا ليلقوا نظرة على إمبراطورهم الميت، وقفوا مشدوهين: وهم يسمعونه يلقي عليهم تحية الصباح.

تطبيقات الحكاية

تمثل أغنية العندليب قوة الحياة الأصيلة داخل كل منا، جوهرنا، لب كينونتنا، موهبتنا الموروثة، وعشقنا، ونوع الطاقة الذي يميزنا. إنها قوتنا الأصيلة، ولا يمكن لتلك الطاقة أن تصل إلى ذروتها بمنبهات زائفة مثل القهوة أو المسكرات أو الشهرة أو كسب الناس أو كلمات التشجيع أو الامتيازات، كما لا يمكن إهدارها في أنشطة تافهة. وهي تنتعش بالتحديات المجدية والمشاركة والإسهام الصادق.

من الأمثلة العظيمة للقوة الأصيلة صوت بيلي هوليداي غير المصقول: فقد كانت موهبتها من القوة بحيث لم تعد لقدراتها الصوتية المحدودة أهمية. في أول الأمر، كان المنتجون يعطونها أغاني من الدرجة الثانية، لكنها نفثت الحياة في كلماتها وألحانها، فما لبثوا أن قدموا إليها الكلمات والألحان العظيمة. وقد نسمع اليوم صوتها ونحن نتسوق في متجر على عجل أو نتناول غداءً سريعًا في أحد المقاهي، لكننا نتأثر بأغنيتها كما تأثر الصياد المشغول بالعندليب. وبالرغم من أن حياة بيلي هوليداي كانت مأساوية في نواحٍ كثيرة، إلا أنها كانت حياتها هي، لا حياة أحد، و طريقتها في الوجود في هذا العالم، لا طريقة أحد غيرها.

ليس كل فنان مشهور أو رياضي أو عالم أو صاحب حرفة أو رجل أعمال أو سيدة أعمال يبذل من نفسه مثلما بذلت بيلي هوليداي، بل

إن كثيراً منهم يستخدمون معرفتهم وموهبتهم بطريقة محسوبة؛ وهذا يذكر بالعندليب الآلي: جميل وبراق ومرضٍ على السطح، لكنهم لا ينشئون ارتباطًا عميقاً مع البشر أو الأشياء.

مثل هؤلاء الفنانين، قد نبخل بموهبتنا أو نبسط بها أيدينا. فأغلب الناس مضطرون لمواصلة الأداء وتقليص التكلفة وزيادة الإنتاجية. أما نتيجة الحمل الزائد أو السخط، فتكون أداءً فاترًا: إذ ننسى أننا مسؤولون أمام أنفسنا عن إمكاناتنا.

ولحسن الحظ أمامنا اختيار آخر. في هذا الفصل سنستلهم العندليب الصغير لننمي إمكاناتنا ونعشق ما نفعل بكل قلوبنا. وربما اعتبر بعضهم هذه رؤية مثالية للحياة: فليكن، فالعالم يحتاج إلى المثاليين. الأهم أن ذلك لا يعني مجافاة الواقع. فليس العندليب بالساذج أو الغافل عن الطبيعة البشرية.

وسنتناول بالمناقشة أيضاً القوى التي تسعى لكبت حركة الحياة وحيويتها، ومنها نفوذ المناصب، ويرمز إليه الإمبراطور، ونفوذ الخبراء، ويرمز إليه أستاذ الموسيقى. فهذه نزعات تتجاذبنا وتنعكس على أماكن عملنا. وفي النهاية سنجتهد في موازنة نفوذ المناصب والخبراء بالقوة الأصيلة، ولا يمكن إنجاز ذلك إلا بإعادة التواصل مع جوهرنا والالتزام بطريقتنا الفريدة في الحياة.

العندليب نموذجًا

«عندليب يشدو بأعذب الألحان، حتى إن أفقر الصيادين، وأكثرهم انشغالاً، كان يتوقف ويستمع إليه»

كيف تتواصل مع طاقتك الأصيلة وتستعيد نصيبك من ذاتك؟ تدلنا قصة العندليب على ذلك. غنِ كلما عنَّ لك ذلك ولا تترك نفسك للكدر والغضب، بل احرص على التواصل مع معين قوتك، وغنِ من كل قلبك.

غنِ كلما شئت

يعشق العندليب الغناء، فهو يغني كل يوم ويجدد طاقة الصياد والإمبراطور جميعاً، ويصل غناؤه مع الزمن إلى درجة التمكن ، عندما تتحرك مشاعر الإمبراطور فتنزل دموعه، يغني العندليب غناءً أشد عذوبة. وعندما يجثم الموت على صدر الإمبراطور تبلغ قوة شدو الطائر الصغير وتأثيره مبلغاً يجعله يتفاوض مع الموت. فهل يستنفر عملك طاقاتك؟ وهل تستمتع بطريقتك في العمل؟ وهل من تعمل معهم يخرجون منك خير ما فيك؟

قضى سام كوهين، أحد الناجين من معسكرات اعتقال النازي، 46 سنة خلف طاولة بيع المأكولات الجاهزة بمحل زابار، وهو محلي المفضل في نيويورك. كان يعمل ستين ساعة في الأسبوع حتى تمكن من إلحاق ابنته بكلية طب الأسنان، وابنه بكلية الطب البشري. كان سام كوهين يسعد الناس بأغنيته. لم يكن الرجل بارعًا في تقطيع

شرائح السالمون فحسب بل كان يغازل النساء اللاتي كن يلقين التحية على الرجال من باب الصداقة ليس إلا، فقد كان يسعى لخلق حياة مرحة لكل من يوجد حول مكان عمله.

لا تترك نفسك للكدر والغضب

أغلب شخصيات الحكاية لا ينتبهون لموهبة العندليب، ويسايرون الشائع بين الناس أو ما يقوله الخبراء، فهم لا يميزون بين لحن شجي ونقيق ضفدع، أو بين موهبة حقيقية وأداء سابق التجهيز. لكن العندليب لا ينوح ولا يشكو من سوء فهم الناس، بل يستمر في الشدو. فهل تشعر أنك مغبون في القدر أو الأجر أو مقيد في سوق عمالة سريع التأثر؟ وإن كان الأمر كذلك فهل تمضي وقتك ترثي لحالك أم تنمي قدراتك المهنية؟

كانت حياة الملحن الإسباني المعاصر جوكين رودريغو شاقة في بدايتها: إذ فقد بصره طفلاً وكان ضمن لاجئي الحرب الأهلية الإسبانية التي وقعت في القرن العشرين، ومع ذلك ظل مخلصاً لموسيقاه. أراد رودريغو أن يبدع موسيقى إسبانية تمتع الناس ولكن ليست موسيقى وطنية حماسية، أرادها موسيقى حديثة، ولكن ليست الموسيقى الطلائعية التي يمتدحها النقاد. وهكذا، وجد الناس ألحانه الكلاسيكية شديدة الجدية وتجاهلها النقاد بوصفها موسيقى خفيفة. لكن رودريغو لم يتكدر ولم يغضب: بل قال: «ربما كان كأسي صغيراً

لكني لا أشرب إلا منه». كان رجلاً متواضعًا أبدع روائع مثل «كونشرتو الأراغوز» للغيتار وقد لقي تقديرًا وجوائز عالمية وتكريمًا لم ينله ملحن إسباني غيره.

تواصل مع مصدر قوتك

العندليب لطيف لكنه قوي، فبينما يهرول الجميع لتلبية أي طلب بسيط للإمبراطور، يرفض هذا الطائر الصغير شبشب الإمبراطور الذهبي ويترك القصر ويرفض أن يعود إليه. وهو لا يفعل ذلك لأنه أناني أو ضنين بما لديه، وإنما لأن الغابة هي مصدر حياته وحريته التي دونها لا يمكن أن يسعد الآخرين. ولا يبقى الطائر قوياً إلا وهو متصل بمصدر قوته. فما الذي يشتتك ويستنزفك؟ وما الذي يمنحك التركيز ويغذيك؟ ما الأشياء التي ينبغي أن تقول لها «لا»؟

المنافسة هي مصدر طاقة كثير من رجال الأعمال والرياضيين. ففي ثمانينيات القرن العشرين كان فريقا «ليكرز» و «كيلتيكس» أسياد لعبة كرة السلة التقليديين تحت قيادة ماجيك جونسون و لاري بيرد، كل يقود فريقه في لحظات الحسم. كان التنافس هو الذي يشعلهما ويجعلهما يلعبان بكل كيانيهما، كانا يغمزان بالكلام في بعضهما في المقابلات الإعلامية قبل المباريات، ومع ذلك كان كل منهما يحترم الآخر إلى حد بعيد، وكان ماجيك يعلم أن الخصم العظيم مصدر للطاقة وكثيرًا ما قال إن بيرد يجعله لاعبًا أفضل.

غنٍ من كل قلبك

لا يستجيب العندليب لسياسة الجزرة والعصا المعروفة في القصر، في صــورة منح الذهب أو الألقــاب أو الجَلد على البطن، إنه يريد الحرية والحميمية (دموع الإمبراطور) والجدوى، ولأنه يدرك مصدر قوته، فإن أداءه دائمًا عظيم. فما الذي يدفعك لأن تغني من كل قلبك؟

كانت كارولين كيرتس واحدة ممن ألهمني غناؤهم؛ فقد قمت بإدارة منتجع للقادة التنفيذيين لسنوات في سندانس، وهو منتجع روبرت ردفورد الجبلي في يوتا، وكانت كارولين منسقة البرنامج. وكانت أقصى توقعاتنا أن يحصل القادة المشتركون في البرنامج على 9 أو 10 في تقويماتنا، لكن المشتركين كانوا يوسِّعون تقديراتنا في كل مرة فيصلون بتأثير كارولين إلى 11 أو 12. كانت كارولين تتواصل معهم، وتتوقع حاجاتهم، وتهيئ لهم بيتاً بعيدًا عن بيتهم الحقيقي. لم تكن تفعل ذلك من أجل المال أو الترقي ولا حتى تقدير الزملاء. الحقيقة أن العملاء أحبوها، ولم يكن أغلب من في المؤسسة يسمع عن عذوبة شدوها: كانت تفعل ذلك لأنها تعشق عملها، وتحب الناس الذين يحضرون البرامج التدريبية.

مثل العندليب، يمكننا أن نسعد الآخرين بعملنا، وذلك إذا فهمنا الفرق بين أن نعطيهم جزءاً من وقتنا وأن نعطيهم جزءًا من روحنا، بين العمل بجد واجتهاد والعمل بإخلاص وحب.

لكن التميز يقتضي المرونة، لابد أن نتحلى بقوة تجعلنا نواجه الأباطرة ذوي النفوذ وأساتذة الموسيقى على كراسيهم العالية الذين يعدون العنادل عناصر تثير الارتياب.

الإمبراطور وأستاذ الموسيقى

«ثم كان على الطائر الاصطناعي أن يغني مجدداً، وللمرة الثالثة والثلاثين، كان اللحن نفسه»

يعتقد كثير من الأباطرة وأساتذة الموسيقى أن العنادل صعبة المراس؛ لأن جوهرها، طريقتها الأساسية في الوجود، لا تستجيب على نحو يمكن التنبؤ به للمال أو الامتيازات أو الشهرة. قد يعجبهم أداء متميز، لكنهم يفضلون عليه ما يأتي بنتائج مضمونة ويمكن تكرارها.

إن الأداء المنضبط المحسوب دوريًا هو أساس الشركات ذات الأسهم المطروحة للعامة، فإذا كان لأباطرة أندرسون سلطة مطلقة، ففي أيامنا هذه لا يقبل المحللون والمساهمون ومجالس الإدارات أي مفاجآت، وعلى المديرين التنفيذيين الكبار أن يقدموا تنبؤات دقيقة وإلا فقدوا مصداقيتهم، وعلى المديرين المباشرين أن يحققوا أهدافاً مالية وإلا فقدوا علاواتهم، وعلى العاملين الأفراد أن يحققوا الأهداف الإنتاجية المنشودة وإلا فقدوا وظائفهم. وكما يجري القول، ليست مسألة شخصية، بل هو حكم العمل. وحتى نتجنب هذه العواقب، نقبل أن نطلق أيدي أناسٍ يتصرفون كالإمبراطور وأستاذ الموسيقى، ثم نُسكت عنادلنا فنخدرهم بمشروبات أو أقراص مذهبة للعقل، أو نغرقهم في إدمان العمل أو مشاهدة التلفاز بصفة مستمرة؛ وعلى السطح لا يبدو أننا نخسر كثيراً بهذا.

وإذا كنا نتعرف بسهولة على الأباطرة وأساتذة الموسيقى حولنا، فإن أخطرهم يعيش بداخلنا ولابد أن نحذرهم.

الإمبـراطور داخل كل منـا هو نفوسنا الطموحـة المدفوعـة، ذلك الجزء فينا الذي يحرص على مكانتنا ومكانة الآخرين في هرم السلطة الذي يفهمه. هذه الصفة تستطيع أن تقرأ سياسة الإدارة وتعرف كيف تؤثر في الناس. وهذا الإمبـراطور الموجود بداخلنا يمكن أن يخلق لنا المشكلات إذا أطلق له العنان، ولكنه يستطيع أن ينجز لنا أشياء كثيرة. يمكن أن يساعدنا في خلق ملف عملي مرغوب في سوق العمل، وفي وضع استراتيجية للوصول إلى المنصب الذي نريده، وفي توفير قدر من المرونة في أثناء ذلك.

وبداخلنا أيضًا أستاذ موسيقى، وهو عقلنا التحليلي، حاجتنا لأن نرى البيانات والأدلة المادية قبل أن نتحرك. هذا الأستاذ الداخلي يثق بما يمكن رؤيته وإحصاؤه وتتبعه؛ فهو منظم ومنضبط وكفء. وطالما أن تلك الشخصية لم تجر على غيرها بأن تتجاهل مشاعرنا وحدسنا على نحو متكرر، فإنها ستساعدنا كثيرًا على إنجاز ما في أيدينا من عمل.

هذه هي قوى التحكم والتنبؤ التي تكمن بداخلنا، والتي تلقي بظلالها على أماكن عملنا؛ فالأباطرة يحكمون الأبنية الهرمية بينما يراقب أساتذة الموسيقى الإنتاجية.

وسنلقي الآن نظرة على هذه الشخصيات واحدة بعد الأخرى حتى نرى كيف لها أن تعين أو تعيق الارتباط الصادق. إن طريقة تصرف هذه الشخصيات داخل مكان عملك هي التي تجعل موقفك سليماً أو مضراً أو واعداً.

ما يفعله الأباطرة

«إذا لم يأت العندليب سيجلد كل من في القصر على بطنه بعد العشاء مباشرة»

تخلق التنظيمات الهرمية أباطرة على كل المستويات. وبالرغم من سمعتها السيئة فهذه التنظيمات تتسم بمرونة فائقة في تنظيم المواقع واكتساب المكانة. ومع بغضنا لطبيعتها غير الديمقراطية، فإننا نحب أن نستخدم المناصب والنفوذ بغرض السيطرة.

يستخدم الإمبراطور في حكايتنا أساليب ناعمة وأخرى فظة ليفرض سيطرته: فالقصر والبساتين ترمز لجاه الإمبراطور، تماماً كما توصل ممرات مكاتب الموظفين التنفيذيين إحساساً بهيبة النفوذ. ففي هذه الأماكن يدرك الأطفال على الفور أن حماسهم سيكبح كما سيمنع ضحكهم ولعبهم وقفزهم، ويدرك الكبار ذلك أيضاً، ولكن مظاهر الثروة و القرب من النفوذ يغريهم.

يريد الإمبراطور أن يضيف العندليب لمقتنياته، وقد توقع أن هذه الصفقة يحليها شبشب ذهبي أو مجوهرات أو ألقاب، ولكن العندليب لا يستجيب لتوقعات الإمبراطور، فيطلب الحميمية (ذلك التواصل الصادق الذي عبرت عنه دموع الإمبراطور) ويطلب الحرية. وهذه مطالب تبدو بسيطة ولكنها أكثر مما يستطيع الإمبراطور أن يقدمه، لأنه لا يقدر أن يتخلى عن السيطرة.

وهكذا ينتقل الإمبراطور إلى ممارسة السيطرة الغليظة فيستخدم القهر: لكنه يريد أن يكسب هذا القهر مظاهر المشاركة الطوعية «فيسمح» للعندليب بقفص خاص بالإضافة إلى «حرية» التنزه خارج القصر، و«يمنحه» اثني عشر خادمًا يرافقونه. يقصد الإمبراطور بهذا التكتيك أن يستولي على طاقة الحياة لدى الطائر. ولكن - كما تقول مارغريت ويتلي - وهي خبيرة في الأجهزة الطبيعية «لا يمكن لأحد أن يمارس الهيمنة على الحياة» فلا عجب أن يهرب العندليب من النافذة، ويسترد حريته في أول فرصة ينشغل الإمبراطور فيها عنه.

يتركه أهل بلاطه في مرحلة تالية من الحكاية لعكس هذا السبب تمامًا: فقد وهنت قبضة الإمبراطور على السلطة، وتم اختيار حاكم جديد. ولأن قيمة أهل البلاط الذاتية ترتبط بمناصبهم، والحاكم القديم صار عبئًا، فقد هرعوا إلى كسب المكانة عند الحاكم الجديد.

وفي النهاية يصبح الإمبراطور وحيداً تماماً. يواجه الموت ويعذبه الندم، يصرخ طلباً للعون فيستجيب العندليب الصغير وتأتي الراحة مع غنائه. وبعد ليلة من النوم الهانئ المجدد للطاقة، يستيقظ الإمبراطور على شعور جديد بالمسؤولية، فيقدم وعد اليوم الوليد، وعداً لا يخدم به الإمبراطور ذاته بل بلاده. ولكن هذا التحول يمثل مشكلة لدى المرتبط بسلطة المناصب. يأتي الخدم ليلقوا نظرة على إمبراطورهم الميت، فتكون «صباح الخير» التي يلقيها عليهم مزعجة لهم لا واعدة.

والآن أدعوك للتفكير في اللاعبين الرئيسين في مكان عملك. هل يحرصون على رضا صاحب المكانة الأولى أكثر من حرصهم على مصلحة المؤسسة؟ هل يحركهم الخوف من الضرب على البطن أم الحرص على الشبشب الذهبي؟ هل يعتمدون على سياسة العصا والجزرة في دفع من حولهم للعمل؟ هل يسعون للسيطرة على طاقات الناس أو استغلالها ويغلفون نواياهم برطانة إدارية؟ فإن كان الأمر كذلك، فلا تكن من السذاجة بحيث تتوقع منهم التغيير، بل كن يقظاً وفكر في خياراتك. هل أفضلها أن تعلن عن رأيك بصراحة أو تنتقل إلى مكان آخر أو ترحل؟ لست مضطراً إلى اتخاذ إجراء فوري، أو ربما أي إجراء، ولكن كل ما عليك ألا تسمح لأحد أن يخدعك.

المأمول أن يقدر رئيسك واللاعبون الرئيسون موهبتك وأن يستخدموا سلطتهم لصالح المؤسسة، فإذا حدث ذلك فلا تبخل، بل كن كريماً بجهدك ووقتك وابذل أقصى ما تستطيع، وقدم أقصى أداء لك.

ما يفعله أساتذة الموسيقى

«لكن الطائر الاصطناعي ظل ساكنًا، فلم يكن هناك من يشغله، ولم يغنِ»

يقدم أندرسون وصفاً نافذاً للعقل التحليلي عندما يخاطب أستاذ الموسيقى البلاط: «فكما ترون – أيها السادة والسيدات – وقبلكم

عظمة الإمبراطور، مع العندليب الحقيقي لا يعرف المرء ماذا سيحدث، أما مع الطائر الاصطناعي فكل شيء محدد، ونعرف ما سيكون ولا اختلاف، إذ يمكن تفسير كل شيء، ويمكن أن نفتحه ونرى عمل العقل البشري، وكيف وضعت الأسطوانات الموسيقية وكيف تدور وكيف تتحرك ونرى أن كل شيء يلي الآخر».

هذا النمط من التفكير هو الذي شكل مؤسساتنا الصناعية الحديثة، حيث تبنى القرارات على البيانات وعلى أصحاب الكفاءات المقربين وعلى الإنتاجية والتقدم. لو كان أندرسون يكتب اليوم لجعل أستاذ الموسيقى مستشاراً باهظ الأجر، خبير إنتاجية مبهراً يلحق باسمه وصف الحائز على أعلى المبيعات التجارية، وشخصاً يرجع إليه أباطرة المؤسسات.

كان فريدريك و. تايلور أهم أستاذ موسيقى في القرن العشرين، فقد أحدثت «الإدارة العلمية» فتحاً في مجال الكفاءة داخل المصانع. بعد ذلك جاء ألفريد سلون المدير التنفيذي الأعلى لشركة جنرال موتورز، ووضع التفكير التحليلي في المكتب الأمامي، فقد كان يرى أن صناع القرارات هم «المادة الخام» للإدارة، وان القرارات الجيدة هي «المبنية على الحقائق تماماً والخالصة من كل اهتمام شخصي». والحقيقة أن أسوء ما يمكن أن يفعله أي مدير حسب كلام سلون هو أن يسمح للاعتبارات الشخصية أن تتدخل في قراراته الخاصة

بالعمل. ومازالت الكفاءة هي أهم ما في عالم الأعمال بعد قرن من كلام تايلور. فإن أغلبنا قد تعرض لخبرات الدمج أو إعادة التنظيم أو إعادة الهيكلة؛ كل ذلك من أجل تحقيق إنتاجية أكبر باستمرار. وبالطبع فإن هذه القفزات في الإنتاجية هي التي تتيح لنا الاستمتاع بمستوى معيشة شديد الارتفاع.

إن ذهنية أستاذ الموسيقى تساعد أيضاً على خلق أماكن عمل تقوم على المزايا الشخصية. ففي محاولة تحقيق الموضوعية وربط الأجر بالأداء، لابد أن نحدد الأدوار، ونعرف الكفاءات، ونضع المقاييس ونتابع التقدم.

لكننا قد نعامل البشر كالأشياء عندما نحاول أن نحقق العدل والإنصاف. فنحن نصف العمليات مسبقاً ونرسل زبائن من طرفنا غير معروفين ليقيموا النتائج: هل يحرص الموظفون على أن ينظروا للعملاء باهتمام، وأن يقولوا «مرحباً» بابتسامة ويحيونه باسمه؟ مثل هذه الإجراءات قد تضمن حدًا أدنى من الأداء المُرضي، ولكن الجو الذي خلقه سام كوهين حوله في محل زابار لا يمكن أن يخضع لهذه المقاييس، وللأسف لا تدخل هذه الصفات الفريدة في الحسبان، لذلك فهي تسقط من التقويم.

ولكن أساتذة الموسيقى قد يسببون الإحباط لمرؤوسيهم أصحاب الأداء المذهل المدهش. أما من يحبون القواعد الواضحة ولديهم كفاءة

تنفيذية ترتبط بالتعليمات فيعدونهم خير مديرين. إن الأمل في تغيير هؤلاء ليس إلا أماني، وخير لنا عمليًا أن نتحمل مسؤولية علاقتنا بهم. ولحسن الحظ أنني رأيت في أثناء تدريبي للقادة كثيراً من العلاقات المضطربة تتحسن وتصبح مثمرة عندما ينجح أحد الطرفين في السيطرة على انفعالاته ويصرف اهتمامه إلى احتياجات الطرف الآخر (وهي احتياجات مشروعة في غالب الأمر).

رأينا أن شخصيات الأباطرة وأساتذة الموسيقى قد تكون شخصيات جامدة، لكن التعامل الناجح معهم يقتضي أن نراهم كما هم. وعندها نختار المواجهة معهم أو الانفصال عنهم.

الأهم من ذلك أننا نحتاج أن نواجه إمبراطورنا الداخلي، وأستاذ الموسيقى القابع بداخلنا، وأحياناً العندليب الطيع فينا أيضاً. وسيبين الجزء التالي كيف نبقى على وعي بوجود هذه الشخصيات وكيف نمنعهم من السيطرة على حياتنا.

عندما تعمل القوة الأصيلة

لكنهم كانوا إذا ما سمعوا العندليب يقولون جميعاً الشيء نفسه: «هذا هو الأروع على الإطلاق».

بالمقارنة مع آبائنا وأجدادنا، فإننا نستمتع بمدى أوسع من الفرص ونملك خيارات متعددة في الحياة. فلا يكمن التحدي في التمييز بين المهم وغير المهم: بل في تقرير أولوية الأهمية. بعد ذلك فإن حركتنا السريعة جعلتنا لا نضيق ذرعًا بتلك الأجزاء الموجودة في أنفسنا والتي تحتاج تأملاً وتفكيرًا مترويا.

وحتى نصل إلى أعمق مصادر طاقتنا ينبغي أن نتروى ونفكر بعمق. وسأكتفي بمناقشة ثلاثة أشياء تستحق التفكير: وهي ضرورة التمييز بين دفقة أدرينالين مؤقتة والطاقة الأصيلة، بين المكانة القائمة على المنصب والسلطة الحقيقية، بين التفكير الأقرب للتمني والعشق الصادق والالتزام* .

تستولي الحاجات الطارئة على كثيرين منا، وكثيرون أدمنوا تلك الحاجات الطارئة، بل إن منا من يخلط بينها وبين الأشياء المهمة حقاً. فإذا كان نمط عملك قوامه 46 ساعة أسبوعياً وتلهبك سياط المواعيد النهائية وتعمل بأقصى سرعة ونفاد صبر، فإنك في خطر. عليك الآن أن تضغط زر التوقف المؤقت وتمنح نفسك وقتاً للاسترخاء والتأمل. اسأل نفسك: «هل أقوم من فراشي صباحًا وأندفع للعمل بسبب المواعيد الصارمة والأدرينالين والكافيين، أم أن العمل نفسه هو ما يخرجني من فراشي؟»

أذكر في أحد برامج المنتجعات أن أحد التنفيذيين كان يفكر في مدى التوازن بين حياته وعمله، وكان قد طلب منه أن يدون ما يحب أن يقوله الناس عنه في جنازته. ولقد اتصل الرجل بزوجته فعلاً وفاجأها بالسؤال: «تحياتي يا عزيزتي! لو مت ماذا ستقولين عني؟» أخذت المرأة بالسؤال وكان ردها الفوري: «إنك تعمل بجد». وبالرغم من اعترافه بأنه يعمل سبعين ساعة في الأسبوع، صدمه أن تكون هذه

* يمكنك أن تحصل على نسخة مجانية من كتاب Guidelines for Candid Team Conversationsعلى موقعنا www.mettenorgaard.com

أول كلمات تخرج من فم زوجته عنه: لذلك قاطعها قائلاً: «أهذا ما ستقولينه عني؟!» وبالطبع انتبهت الزوجة للموقف، وأعطته الإجابات سابقة التجهيز التي مفادها أنه أب رائع وزوج محب، لكن ذلك، لحسن الحظ، لم يذهب قلقه.

كثيرًا ما تغرينا الوظائف عالية الأجر والمكانة. ولنقل إنك تلقيت عرضاً للاشتراك في مشروع ذي سمعة ومكانة كبيرة، الأجر فيه عظيم والترقي مفتوح، أي ضربة موفقة إلى الأعلى. ولكن المشروع سيستغرق شهورًا وسيقتضي الانتقال إلى مكان آخر. يتفق إمبراطورك الداخلي مع رفيقه أستاذ الموسيقى على أن هذه خطوة عملية، فتسرع إلى البيت لتقنع عائلتك. في أوقات كهذه يحتاج المرء لأن يتوقف ويأخذ الوقت الكافي للتفكير فيما إذا كانت هذه النقلة ستمنحه قوة حقيقية. استمع إلى صوت العندليب: «هل العمل نفسه يجذبني؟ هل المشروع من الجاذبية بحيث سأظل متعلقاً به لشهور؟ هل أحترم من سأعمل معهم من الناس؟ هل ثمرة هذا القرار تكافئ الثمن الذي سيدفعه من أحبهم؟».

لابد من التمييز بين التفكير من باب التمني والعشق الحقيقي. يعتقد الكثيرون أن السعادة هي أن نترك العمل، ونتفرغ لكتابة الرواية الأمريكية العظيمة المنتظرة، أو نفتح مطعمنا الخاص أو نلتحق بهيئات تطوعية تساعد الشعوب الفقيرة. قد تكون تلك الأشياء مهنة بعض الناس، لكنها مجرد خيال للغالبية، حالة من حالات البحث عن السعادة في العمل والحياة عن طريق سيناريو خيالي لا عن طريق السعي المخلص والالتزام.

يقدم ديفيد فيسكوت - عالم النفس الجاد وصاحب البرنامج الإذاعي - النصيحة التالية: عندما يشتكي أحد المتصلين من التعاسة ويعلن الرغبة في الاستقالة من العمل والتفرغ للكتابة، يسأله فيسكوت: «ما قدر ما تكتب حالياً؟» فإذا قال متذمراً: «ليس لدي وقت للكتابة حالياً»، يقول له: «ابدأ الكتابة الآن»، ويقترح عليه مداومة الكتابة يومياً وفي نهاية الأسبوع وفي أثناء الإجازات، أن يكتب ويكتب ويكتب. فإذا شعر أنه ما زال بحاجة إلى المزيد من الوقت ليكتب، يمكنه حينئذٍ أن يعمل لنصف الوقت. فإذا استغرقت الكتابة كل ما توفر له من وقت يمكنه ساعتها أن يفكر في ترك عمله. إن مراجعة الإنسان لسلوكه وسيلة ممتازة لاختبار مدى التزامه.

ولسوء الحظ، عندما يكون الأمر متعلقاً بالأحلام تخرج علينا شخصية ديزني «جيميني كريكيت» لتضللنا بكلام مثل «عندما نتمنى الوصول لنجم نصل إليه» فيجعلنا نظن أن التمني وحده يحقق الأحلام. أما الدكتور فريمان هرابوسكي - رئيس جامعة ميريلاند - فقد تجاوز الحلم إلى ما يحقق الحلم. ففي سن الثالثة عشرة زار معهد توسكيجي وهناك أدرك أن العلم سيكون حياته. وبدأ يتصور نفسه حاملاً لدرجة الدكتوراه، ويدرس الرياضيات و يصل إلى منصب العميد. وفرض هذا المراهق على نفسه نظاماً يومياً حتى يحقق هذه الرؤية. ففي كل صباح كان ينظر في المرآة ويقول: «صباح الخير يا دكتور هرابوسكي». كانت رؤيته واضحة، وكان عنده الالتزام الذي يحفظها.

تقول تويلا شارب مصممة الاستعراضات المعروفة، في كتابها «عادة الإبداع» إن تحقيق الأحلام يقتضي التزامًا مجنوناً. حتى بعد أن وصلت تويلا سن الستين، مازالت تبدأ يومها في الخامسة والنصف صباحًا بساعتين من التدريب في صالة الألعاب الرياضية قبل البروفات. هذه الحاجة للالتزام هي لب إحدى النكات القديمة عن سائح يسأل شخصاً عن شوارع نيويورك: «كيف تذهب إلى كارينجي هول؟» فيجيبه: «بالتدريب ثم التدريب ثم التدريب». مهما كان ما تحلم به، فإن السؤال الحاسم هو هل لديك الانضباط الكافي لتحققه بيدك؟

* * *

الغناء هو موهبة العندليب وعشقه، فهو يغني حتى بعد حرمانه من أشياء مهمة مثل الحرية والمكان المفتوح.

ليست الموهبة والعشق موضوعاً للحكايات الخرافية وحدها، فكتاب مثل «من جيد إلى عظيم» وقد حقق أعلى المبيعات، يبين مؤلفه، جيم كولينز، الباحث في مجال الأعمال أن الموهبة والعشق من ضرورات تحقيق أداء متميز لأي مكان عمل، وهما أساسيان لأي شخص يود الانتقال من مستوى متواضع إلى مستوى تمكن العندليب. يدعونا جيم كولينز للتفكير في سؤالين مهمين: «ما الشيء الذي أحبه إلى درجة تجعلني أطمح إلى العظمة؟» و«ما الشيء الذي أحبه إلى درجة تخلق عندي الدافع والانضباط اللازمين لتحقيقه؟». هذان السؤالان بداية

مثالية لمن أراد أن يتجاوز أداؤه المستوى المتهافت، وأن يمنح عمله جزءاً خالصًا من نفسه.

أما عشقي أنا فهو أن أساعد الناس لأن يكونوا صادقين وأن يعيشوا بحق في عملهم، وأن يكون للناس حياة أصيلة تخص العمل. وأملي أن تكون قصة «العندليب»، وهي الأثيرة عندي قد مست مشاعرك بشدوها حتى تكون «سعيداً» و«متفكرًا».



نقاط تستحق التفكير

ـ ما الذي يبعثر طاقتك ويشتت انتباهك عن مصدر قوتك، وما الذي ينبغي أن تقول له «لا»؟

ـ ما حجم عوامل مثل المنصب والامتيازات والشعبية في تحديد اختيارات حياة عملك؟ وما حجم عاملي العشق والموهبة؟

نقاط تناقشها مع زملائك

ـ من «العنادل» التي تستمتع بها؟

ـ ما الأنشطة والتفاعلات التي تستنزفنا، و أيها يحيينا؟


منتدى سور الأزبكية